من أخلاق السلف

دار طيبة للنشر والتوزيع



أين نحن من أخلاق السلف

عبد العزيز بن ناصر الجليل

بهاء الدين بن فاتح عقيل



دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض ١١٤٧٢ ص.ب ٣٦١١٢ ت ٤٢٥٣٧٣٧

٢١٢,٢
٨٤٦ ج الجليل، عبدالعزيز ناصر
أين نحن من أخلاق السلف / عبدالعزيز بن ناصر الجليل، بهاء الدين عقيل - ط ٢. الرياض: دار طيبة، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م
... ص ؛ سم
ردمك ٩ - ٠ - ٩٠٠٥ - ٩٩٦٠
١. الأخلاق الإسلامية ٢. الإسلام - تراجم
أ. عقيل، بهاء الدين، م. مشارك ب. العنوان

رقم الإيداع ٠٢٨٠ / ١٤

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ـ الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

□ مقدمة الطبعة الثانية □

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فلم يكد يمضي شهر واحد على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب حتى نفدت بكاملها، وطُلِب منا إصدار طبعة ثانية؛ فكان لذلك وقع طيب في نفوسنا أن نال الكتاب إعجاب القراء، كما تأكدت لدينا حاجة الصحوة الإسلامية وإقبالها على الأعمال التي ترشد إلى هدي السلف وأحوالهم. ولذا فإننا نعد القراء بمزيد عناية بهذه الأعمال، وإصدارات جديدة في هذا الباب قريباً إن شاء الله تعالى.

هذا، ولقد حرصنا على ألا تصدر هذه الطبعة الجديدة إلا بعد مراجعة للطبعة الأولى قمنا فيها بتصويب الأخطاء المطبعية، واستدراك ما فاتنا من توضيح لمعاني بعض الكلمات.

نسأل الله الإخلاص في العمل وحسن القبول، وله الحمد في الأولى والآخرة.

مكتب الدراسات والتحقيق بدار طيبة

بهاء الدين عقيل



بسم الله الرحمن الرحيم

□ المقدمـــة □

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أمــا بعد:

فإنه لم يعد خافيا على كل مسلم يريد لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة أن التزام كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ بفهم السلف الصالح هو سفينة النجاة لمن يريد لنفسه النجاة. كما لم يعد خافياً أيضاً على طالب العلم المريد للحق أن مصطلح (السلف الصالح) يقصد به القرون المفضلة بقيادة الرسول ﷺ ومن بعده صحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان. ولكن هناك أمر مهم في منهج السلف الصالح لم يأخذ حقه من العناية به والتربية عليه ـ مع القناعة التامة بأهميته وأنه أساس في منهجهم ـ ذلكم هو ما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم؛ فمن المعلوم أننا عندما نتحدث عن منهج السلف ـ رحمهم الله ـ لا نعني بذلك علماً في الذهن المجرد، وإنما يشمل منهجهم: العقيدة، والتصور، والسلوك، والأخلاق.

وإن المتأمل في حياتنا معشر أهل السنة ـ في هذه العصور المتأخرة ـ يلاحظ بوناً شاسعاً، وانفصالاً كبيراً ـ ما بين مكثر ومقل في ذلك ـ بين الجانب العلمي النظري والجانب السلوكي الأخلاقي؛ حيث أصبح من المعتاد أن يرى الإنسان أحياناً من نفسه أو من بعض إخوانه من الدعاة بعداً في الجانب الخلقي عن أخلاق السلف وسلوكهم. فمن اللازم إذن عند طرح منهج السلف والدعوة إليه أن يطرح شاملاً لمعتقدهم وفقههم، ولسلوكهم وأخلاقهم؛ فكما أنه لا يقبل

من أحد أن يلتزم بأخلاق السلف ويترك معتقدهم، فكذلك لا يسوغ فهم معتقدهم دون الالتزام بسلوكهم وأخلاقهم. ولو أننا رجعنا إلى سيرة سلفنا الصالح لوجدناها خير مثال لهذا المنهج المتكامل. فإذا ما تم لنا إدراك هذا الأمر والالتزام به سوف تختفي من حياتنا - بإذن الله تعالى - تلك الصور والمواقف المتناقضة؛ نعم، سوف لن نجد شخصاً على عقيدة السلف في توحيد الألوهية، والأسماء والصفات، ومحاربة البدع، ثم هو في نفس الوقت يخالف سلوكهم باقترافه للظلم والكذب والغيبة والحقد والشحناء واتباع الأهواء.

وبعبارة أخرى فإن تطبيق هذا المنهج كاملاً كفيل بإزالة هذه الازدواجية التي نعاني شيئاً منها حالياً.

ومما يؤيد أهمية الجانب الأخلاقي في منهج السلف تضمين علمائهم هذه الجوانب فيما كتبوه من أصول أهل السنة والجماعة كالعقيدة الواسطية، والطحاوية وغيرها، ومن أمثلة ذلك قول الإمام الصابوني في تقريره لعقيدة السلف: «ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام على اختلاف الحالات، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف والسعي في الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، واتقاء شر عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر»[1].

وكذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية - بعد تقريره لمعتقد أهل السنة والجماعة في العقيدة الواسطية: «ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج، والجهاد، والجمع، والأعياد

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان اسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني (ت ٤٤٩هـ) تحقيق نبيل بن سابق السبكي ص ٨٦ طبعة مؤسسة البشائر العالمية للتجارة والتوزيع - الرياض ط ١٤١٣هـ

مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً**»[1] وشبك بين أصابعه، وقوله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[2]، ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[3] ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر، والخيلاء والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها»[4]. فهذا يعني أن منهج السلف يشمل كلا الجانبين: العقدي، والأخلاقي، وبقدر ما يحصل من النقص في أحدهما يكون النقص في الالتزام بهذا المنهج العظيم.

ولقد وفق الله سبحانه لاستقراء بعض أحوال السلف، وأخلاقهم؛ وذلك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في الصلاة ٨٨ باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ح ٤٨١ (فتح ١/٦٧٤) بلفظ مقارب. ومسلم في البر والصلة والآداب ـ ١٧ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ح ٢٥٨٥ (١٩٩٩/٤) بنحوه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في الأدب ـ ٢٧ باب رحمة الناس والبهائم ح ٦٠١١ (فتح ١٠/٤٥٢) بمعناه. وأخرجه مسلم بلفظ مقارب في البر والصلة والآداب ـ ١٧ باب تراحم المؤمنين ... ح ٢٥٨٦ (١٩٩٩/٤).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة ـ ١٦ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ح ٤٦٨٢ (٥/٦٠). وأخرجه الترمذي في الرضاع ـ ١١ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ح ١١٦٢ (١٣٥/٤). وصححه الألباني (صحيح أبي داود ٨٨٦/٣ رقم ٣٩١٦).

(٤) شرح العقيدة الواسطية ص ١٥٥، ١٥٦ طبعة إدارة إحياء السنة ـ كوجرانوالة ـ باكستان.

فيما كتبه الإمام الذهبي في كتابه الجامع (سير أعلام النبلاء)، وما كتبه ابن الجوزي في (صفة الصفوة) ـ وهو مختصر لحلية الأولياء لأبي نعيم ـ ورأينا من المفيد إخراج هذه الجوانب في كتاب لطيف الحجم سهل التناول يطلع المرء من خلاله على هذه الأخلاق السامقة ليحتذي حذوها ويتأسى بها. وقد اقتصرنا على جمع هذه الآثار وترتيبها في فقرات متناسقة دون تعليق منا عليها، فهي تنطق بما فيها، ولم يكن منا إلا وضع عناوين الفقرات، وتوضيح معاني بعض الكلمات وتخريج الآيات والأحاديث بالهامش، وكذا عزو هذه الآثار إلى مكانها في (السير) أو (صفة الصفوة).

ولا يخفى على القارىء الكريم أن هذا المجموع إنما هو اختيارات وقطوف من سير السلف لم نجمع على وجه الاستيعاب والحصر، وأنى لنا في هذا الكتاب أن نجمع ما يحقق مرادنا من النصح، وسيرتهم كلها ناطقة بذلك. والسعيد من دله يسير الكلام على حقيقة منهج أصحاب سيد الأنام ﷺ.

هذا، وقد تم ترتيب هذه الفقرات على النحو الآتي:

١ - السلف والإخلاص والصدق.
٢ - السلف والخشية والمراقبة لله.
٣ - السلف وكراهيتهم للشهرة.
٤ - السلف والخوف من العجب.
٥ - السلف والزهد في الدنيا.
٦ - السلف والزهد في الرئاسة.
٧ - السلف والفقه في الدين.
٨ - السلف وانقيادهم للحق.
٩ - السلف والفتيا.
١٠- السلف والقرآن الكريم.
١١- السلف وفقه الاجتهاد في العبادة.
١٢- السلف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٣- السلف والجهاد في سبيل الله.

١٤- السلف والصبر على المصائب.

١٥- السلف والفتن في الدين.

١٦- السلف والفتن بين المسلمين.

١٧- السلف وفتنة السلاطين.

١٨- السلف وفتنة النساء.

١٩- السلف والبر بالأمهات.

٢٠- السلف والبر بالأصدقاء وحسن الصحبة.

٢١- السلف وحقوق الخلق.

٢٢- السلف والتعامل مع الأخطاء.

٢٣- السلف والأدب مع العلماء.

٢٤- السلف وآداب الكلام واللسان.

٢٥- السلف وحفظ الوقت.

٢٦- السلف والاعتدال في الضحك والمزاح

نسأل الله أن ينفع بها من جمعها ومن رتبها ومن قرأها واستمع إليها إنه سميع مجيب.

وقبل أن نضع القلم في هذه المقدمة ونترككم للنهل من معين سير الأئمة المصلحين ننوه إلى أن هذه الفقرات المجموعة هي جزء من مشروع كبير نعتزم فيه جمع نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين فيما يتعلق بمنهج الإصلاح والتغيير، وترتيب كل ذلك في فصول وأبواب متناسقة.

نسأل الله التوفيق والسداد وأن يتمم لنا هذا الأمر بخير، ويعم بنفعه الدعاة والمصلحين وسائر المسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكتب التحقيق بدار طيبة للنشر والتوزيع

عبدالعزيز بن ناصر الجليل

بهاء الدين عقيل

□ ١ـ السلف والإخلاص والصدق □

• عن بكر بن ماعز قال: ما رُئي الربيع متطوعاً في مسجد قومه قطّ إلا مرةً واحدة[١].

• وعن سفيان قال: أخبرتني مُرّيّة الربيع بن خُثَيم قالت: كان عمل الربيع كلّه سراً إن كان ليَجيءُ الرجل وقد نَشَر المصحف فيغطيه بثوبه[٢].

• وعن منذر، عن الربيع بن خُثَيم قال: كلّ ما لا يُبتغى به وجْهُ الله عز وجل يضمحلّ[٣].

• وعن أبي حمزة الثُّمالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدّق به. ويقول: «إن صدقةَ السرّ تطفيء غضبَ الربّ عز وجل»[٤].

• وعن عَمرو بن ثابت قال: لما مات علي بن الحسين فَغَسَّلوه جعلوا ينظرون إلى آثارٍ سُود في ظَهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جُرُبَ الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[٥].

• وعن ابن عائشة قال: قال أبي: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقَدْنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين[٦].

---

(١) صفة الصفوة: ٦١/٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) صفة الصفوة: ٩٦/٢. وقوله: «إن صدقة السر تطفيء غضب الرب عز وجل» حديث مرفوع إلى النبي ﷺ من طرق كثيرة لا تخلو أسانيدها من مقال، ولكن صححه الألباني بمجموع طرقه: السلسلة الصحيحة: ١٩٠٨.

(٥) صفة الصفوة: ٩٦/٢.

(٦) المصدر السابق نفسه.

● وعن محمد بن مالك بن ضيغم قال: حدثني مولانا أبو أيوب قال: قال لي أبو مالك يوماً: يا أبا أيوب احذر نفسك على نفسك فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي، وأيم الله لئن لم تأت الآخرةُ المؤمنَ بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران: همّ الدنيا وشقاء الآخرة: قال قلت: بأبي أنت وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو ينصَب[1] لله في دار الدنيا ويدأب؟ قال: يا أبا أيوب فكيف بالقبول وكيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يُرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قُربانه، قد أصلح همّته، قد أصلح عملَه، يُجمع ذلك يوم القيامة ثم يُضرب به وجهه[2].

● وقال الذهبي: حدثنا أحمد، حدثنا حماد، عن أيوب قال: أدركتُ الناس ها هنا وكلامهم: إن قضي وإن قُدّر. وكان يقول: ليتّقِ الله رجلٌ. فإن زهد، فلا يَجْعَلَنَّ زُهده عذاباً على الناس، فلأَنْ يُخفيَ الرجلُ زهدهُ خيرٌ من أن يُعلنه[3].

● وعن جعفر بن برقان قال: بلغني عن يونس بن عبيد فضلٌ وصلاحٌ فكتبتُ إليه: يا أخي بلغني عنك فضلٌ وصلاح فأحببت أن أكتب إليك، فاكتب إليّ بما أنت عليه. فكتب إليّ: أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه، وأخبرك أني عرضت على نفسي أن تحبّ للناس ما تحبّ لها وأن تكره لهم ما تكره لها فإذا هي من ذلك بعيد ثم عرضت عليها مرّة أخرى ترْك ذكْرهم إلا من خيرٍ فوجدت الصوم في اليوم الحار الشديد الحّر بالهواجر بالبصرة أيْسر عليها من ترْك ذكْرهم، هذا أمري يا أخي والسلام[4].

● وقال محمد بن المثنى: حدثنا عبدالله بن سِنان قال: كنتُ مع ابن المبارك، ومُعتمر بن سليمان بطَرَسُوس، فصاح الناسُ، النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطفَّ الجمعان، خرج رومي، فطلب البِراز، فخرج إليه رجلٌ،

---

(١) ينصب: يتعب.

(٢) صفة الصفوة: ٣/٣٦٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٦/١٩.

(٤) صفة الصفوة: ٣/٣٠٢.

فشدَّ العِلْجُ[1] عليه فقتله، حتى قَتل سِتةً من المسلمين، وجعل يَتَبَخْتَرُ بينَ الصَّفين يطلُب المبارزة، ولا يخرجُ إليه أحد، فالتفتَ إليَّ ابنُ المبارك، فقال: يا فلان، إن قُتِلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرَّكَ دابته، وبرز للعِلْج، فعالج معه ساعة، فقتل العِلْجَ، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر فقتله حتى قَتل ستة عُلوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا[2] عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبدالله لئن حدَّثت بهذا أحداً، وأنا حَيٌّ، فذكر كلمة[3].

● وعن أحمد بن إسحاق: أخبرنا الفتح بن عبدالسلام، أخبرنا محمد بن عمر، وأبو غالب محمد بن علي، ومحمد بن أحمد الطَّرَائِفيّ قالوا: أنبأنا أبو جعفر محمد ابن أحمد، أنبأنا أبو الفَضْل عُبيد الله بن عبدالرحمن، حدثنا جعفر بن محمد، حدثنا عمرو بن عثمان الحمصي، حدثنا بقيَة، حدثني صفوان بن عمرو، حدثني سُليم بن عامر، حدثني جُبَيْر بن نُفَير، أنه سمع أبا الدرداء، وهو في آخر صلاته، وقد فرغ من التشهد، يتعوَّذ بالله من النفاق. فأكثر التعوذ منه. فقال جُبَيْر: وما لكَ يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟! فقال: دَعْنا عَنْكَ، دعنا عنك. فوالله إنَّ الرجل لَيُقْلَبُ عَنْ دِينِهِ في السَّاعةِ الوَاحِدَةِ فيُخلَع منه[4].

● وعن الفِرْيابي: حدثني أبو بكر سعيد بن يعقوب الطَّالقاني، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن الأوزاعي، عن هارون بن رِئاب، أن عبدالله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال: انظروا فلاناً لرجلٍ من قريش، فإني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشبيه العِدة، وما أُحِبُّ أن ألقى الله تعالى بثُلُث النفاق، وأشهدكم أني قد زوجته[5].

● وعن موسى بن المعلَّى قال: قال حذيفة: يا [illegible]، ثلاث خِصَال إن كُنَّ

---

(١) العلج: الرجل من كفار العجم.

(٢) كاعوا: جبنوا. والكاعي: المنهزم.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٠٨،٤٠٩.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/٣٨٣ وقال الذهبي: إسناده صحيح.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٨/٣٩٦.

فيك لم ينزل من السماءِ خيرٌ إلّا كان لك فيه نصيب: يكون عَملك لله عز وجل وتحبّ للناس ما تحب لنفسك، وهذه الكِسْرةُ[1] تحرَّ فيها ما قدرت[2].

• وروي أن قاصاً كان بقرب محمد بن واسع، فقال: مالي أرى القلوب لا تخشعُ، والعيون لا تدمعُ، والجلود لا تقشعِرُّ؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القومَ أُتوا إلا من قِبلك، إن الذكر إذا خرج مِن القلب وقع على القلب[3].

• وعن عبدالصمد بن عبدالوارث: حدَّثنا محمد بن ذَكْوان، حدثنا خالد بن صفوان، قال: لقيتُ مَسْلَمةَ بنَ عبدالملك فقال: يا خالد، أخبِرْني عن حَسَنِ أهلِ البصرة؟ قلتُ: أصلحكَ الله، أُخبِرُك عنه بعلْم، أنا جارُه إلى جَنْبه، وجليسُهُ في مجلسه، وأعلم من قِبَلي به: أشبهُ الناس سريرةً بعلانية، وأشبهُهُ قوْلاً بفعل، إنْ قعدَ على أمرٍ قامَ به، وإنْ قام على أمرٍ قعد عليه، وإنْ أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإنْ نهى عن شيءٍ كان أتركَ الناس له، رأيتُه مستغنياً عن الناس، ورأيتُ الناس محتاجين إليه، قال حَسْبُك، كيف يَضِلُّ قومٌ هذا فيهم[4].

• وقال عون بن عُمارة: سمعت هشاماً الدَّسْتَوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبْتُ يوماً قطُّ أطلبُ الحديث أريدُ به وجهَ الله عز وجل.

قلتُ ـ [أي الذهبي]ـ: والله ولا أنا. فقد كان السَّلَفُ يطلبون العلم لله فنبُلوا، وصاروا أئمة يُقتدى بهم، وطلبه قومٌ منهم أولاً لا لله، وحصَّلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم فجرَّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطَّريق، كما قال مُجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبيرُ نيَّة، ثم رزق الله النية بعدُ، وبعضهم يقولُ: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكونَ إلا لله. فهذا أيضاً حسن. ثم نشروه بنيَّةٍ صالحة.

---

(١) يريد بالكسرة: الطعام؛ أي فليكن طعامك حلالاً.

(٢) صفة الصفوة: ٢٦٩/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٢٢/٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٥٧٦/٢.

وقوم طلبوه بنيّة فاسدة لأجل الدُنيا، وليُثْنى عليهم، فلهم ما نووا: قال عليه السلام: «مَنْ غَزَا يَنْوِي عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى»[1]. وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنورِ العلم، ولا لهم وقعٌ في النُفوس، ولا لِعلمهم كبيرُ نتيجة من العمل، وإنما العالِمُ من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، ووَلُوا به المناصبَ، فظلموا، وتركوا التقُيِّد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتباً لهم، فما هؤلاء بعلماء!.

وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرُخَص، وروى الشاذَّ من الأخبار. وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهَتَكه الله، وذهب علمُه، وصار زاده إلى النار. وهؤلاء الأقسام كلهم رَوَوا من العلم شيئاً كبيراً، وتضلَّعوا منه في الجملة، فخلَّف من بعدهم خلف بَانَ نقصُهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظَّاهر، ولم يُتقِنُوا منه سوى نزْرٍ يسير، أوْهَمُوا به أنهم علماء فضلاء، ولم يَدُرْ في أذهانهم قَطُّ أنهم يتقرَّبون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخاً يُقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رَعاعاً، غايةُ المدرِّس منهم أن يُحصِّل كتباً مُثَمَّنة يَخزُنُها وينظُر فيها يوماً ما، فيصحِّف ما يُورده ولا يقَرِّره. فنسأل الله النَّجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالمٌ ولا رأيت عالماً[2].

● عن محمد بن عيسى قال: كان عبدالله المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبدالله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب وكان مستعجلا فخرج في النفير فلما قفل من غزوته ورجع إلى الرقة سأل عن الشاب فقالوا: إنه محبوس لدَيْنٍ ركبه، فقال عبدالله، وكم مبلغ دينه؟ قالوا عشرة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٣١٥/٥، والدارمي: ٦٥٤/٢، والنسائي: ٢٤/٦ من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً بلفظ: «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى».

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٥٢/٧، ١٥٣.

الاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دل على صاحب المال فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم وحلّفه أن لا يخبر أحدا ما دام عبدالله حياً. وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس.

وأدلج عبدالله وأُخرِجَ الفتى من الحبس، وقيل له: عبدالله ابن المبارك كان ها هنا وكان يَذكرك، وقد خرج. فخرج الفتى في أثره فلحقه على مَرْحلتين أو ثلاثٍ من الرَّقَّة، فقال: يا فتى أين كنت؟ لم أرك في الخان؟ قال: نعم يا أبا عبدالرحمن كنت محبوساً بِدَيْن. قال: وكيف كان سَبب خَلاصِك؟ قال: جاء رجل وقَضى دَيْني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس. فقال له عبدالله: يا فتى احْمَد الله على ما وفّق لك من قضاءِ دَيْنك. فلم يخبر ذلك الرجل أحداً إلّا بعد موت عبدالله[1].

● وعن أبي جعفر الحذّاء قال: سمعت ابن عيينة يقول: إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجَوْر[2].

● وعن عبدالله بن مبارك قال: قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كَلام السلف أنفع من كلامنا قال: لأنهم تكلّموا لِعزّ الإسلام ونجاةِ النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلَب الدنيا ورضا الخَلْق[3].

● وقال النضرُ بن شُميل: غلا الخز في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة، وكان يونس بن عُبيد خزازاً فعلم بذلك فاشترى من رجل متاعاً بثلاثين ألفاً. فلما كان بعد ذلك، قال لصاحبه: هل كنتَ علمت أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا؟ قال: لا. ولو علمتُ لم أبع. قال: هَلُمَّ إليّ مالي، وخذ مالك، فرد عليه

---

(١) صفة الصفوة: ١٤١/٤، ١٤٢.

(٢) صفة الصفوة: ٢٣٤/٢.

(٣) صفة الصفوة: ١٢٢/٤.

الثلاثين الألف[1].

• ورُوي عن بشرٍ أنه قيل له: ألا تُحدِّثُ؟ قال: أنا اشتهي أن أحدِّث، وإذا اشتهيتُ شيئاً، تركتهُ[2].

• وعن الفضيل بن عياض: يا مسكين، أنت مسيءُ وترى أنك محسن، وأنت جاهل وترى أنك عالم، وتبخلُ وترى أنك كريم، وأحمق وترى أنك عاقل، أجلُكَ قصير، وأملُك طويل.

• قلت ـ [القائل هو الذهبي] ـ: أي والله، صدق، وأنت ظالم وترى أنك مظلومٌ، وآكل للحرام وترى أنك متورِّع، وفاسق وتعتقِدُ أنك عَدْلٌ، وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبُه لله[3].

• وقال يوسفُ بنُ أحمد الشيرازيُ في «أربعين البلدان» له: لما رحلتُ إلى شيخنا رحْلةِ الدنيا ومُسندِ العصرِ أبي الوقت، قدَّر الله لي الوصولَ إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمتُ عليه، وقبلتُه، وجلستُ بين يديه، فقال لي: ما أقدمكَ هذه البلاد؟ قلتُ: كان قصدي إليك، ومُعوَّلي، بعد الله عليك، وقد كتبتُ ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيتُ إليك بقدمي، لأدركَ بركة أنفاسِك، وأحظى بعُلوِّ إسنادِك. فقال: وفقك الله وإيّانا لمرضاته، وجعل سَعْيَنا له، وقَصْدَنا إليه، لو كُنتَ عرَفْتَني حقَّ معرفتي، لما سلَّمتَ عليَّ، ولا جلستَ بين يديَّ، ثم بكى بُكاءً طويلاً، وأبكى من حضرهُ، ثم قال: اللهم استُرنا بسترِكَ الجميلِ، واجعل تحت السترِ ما ترضى به عنا، يا ولدي، تعلمْ أني رحلتُ أيضاً لسماع «الصحيح» ماشياً مع والدي من هَرَاة إلى الداووديّ ببُوشَنْج ولي دون عشرِ سنين، فكان والدي يضعُ على يديَّ حَجَرين، ويقول: احملْهما. فكنتُ من خوفه أحفظهُما بيديَّ، وأمشي وهو يتأمَّلني، فإذا رآني قد عييتُ أمَرني أن ألقي حجراً واحداً، فألقي،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٩٣/٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٧٠/١٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٤٠/٨.

ويَخِفُ عني، فأمشي إلى أن يتبيَّن له تعبي، فيقول لي: هل عييت؟ فأخافه، وأقولُ: لا. فيقول: لم تُقصِّر في المشي؟ فأسرعُ بين يديه ساعةً، ثم أعجِزُ، فيأخذ الآخرَ، فيُلقيه، فأمشي حتى أعطَبَ، فحينئذٍ كان يأخذُني ويحملُني، وكنا نلتقي جماعةَ الفلاحين وغيرَهم، فيقولون، يا شيخُ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفلَ نُركبُه وإياكَ إلى بُوشَنْج، فيقول: معاذَ الله أن نركب في طلبِ أحاديثِ رسول الله ﷺ، بل نمشي، وإذا عجز أركبتُه على رأسي إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ورجاءَ ثوابِه، ولم يبق من أقراني أحدٌ سواي، حتى صارت الوفودُ ترحلُ إليَّ من الأمصار. ثم أشارَ إلى صاحبِنا عبدالباقي بن عبدالجبار الهَرَويِّ أن يُقدِّم لي حَلْواء، فقلت: يا سيِّدي، قراءتي لجُزء أبي الجَهْمِ أحبُّ إليَّ من أكل الحلواء. فتبسَّم، وقال: إذا دخل الطعامُ خرج الكلام. وقدم لنا صحناً فيه حَلْواءُ الفانيذ، فأكلنا، وأخرجتُ الجُزء، وسألتُه إحضارَ الأصلِ، فأحضرهُ، وقال: لا تخف ولا تحرِص، فإني قد قبرتُ ممن سمع عليَّ خلقاً كثيراً، فسل الله السلامةَ. فقرأتُ الجُزء، وسُرِرتُ به، ويسَّر اللهُ سماعَ «الصحيح» وغيرَه مراراً، ولم أزل في صُحبتِه وخدمته إلى أن تُوفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة[1].

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٣٠٧، ٣٠٨.

□ ٢ـ السلف وخشيتهم من الله ومراقبتهم له □

● عن ابن مسعود أنه كان يقول إذا قعد: إنكم في ممرِّ الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموتُ يأتي بغتة، من زرع خيراً يُوشِكُ أن يَحْصُدَ رغبة، ومن زرع شرًّا يُوشِكُ أن يحصد ندامةً، وَلِكل زارع مِثْلُ ما زرع، لا يُسبقُ بطيءٌ بحظه، ولا يُدرِكُ حريصٌ ما لم يُقَدَّرْ له، فمن أعطِيَ خيراً، فالله أعطاه، ومن وُقي شرًّا، فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاءُ قادة، ومجالستهم زيادة[1].

● وعن الفَسَوي: حدثنا أبو اليمان، عن جرير بن عثمان، عن أبي الحسن عِمْران بن نِمْران، أنَّ أبا عبيدة كان يسيرُ في العسكر فيقول: ألا رُبَّ مُبيِّضٍ لثيابه، مُدَنِّسٍ لدينه! ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مُهين! بادروا السيئاتِ القديماتِ بالحسناتِ الحديثاتِ[2].

● وعن ابن شوذب قال: لما حضرت أبا هريرة الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: بُعد المفازة وقلة الزاد وعَقَبة كَؤودٌ، المهبِطُ منها إلى الجنة أو النار[3].

● وعن عبيد الله بن السريّ قال: قال ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حُمل به عليّ الدَّيْنُ ما هو. قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس. فحدثت به أبا سليمان الدّارانيّ فقال: قلَّتْ ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتَوْن، وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نُؤتَى؟[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٩٧/١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٨/١.
(٣) صفة الصفوة: ٦٩٤/١.
(٤) صفة الصفوة: ٢٤٦/٣.

● وعن عبدالله بن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثني عمّي يزيد بن يزيد بن جابر، عن عطاءٍ الخراساني أنه كان يقول: إني لا أوصيكم بدنياكم، أنتم بها مستوْصَوْن، وأنتم عليها حراص، وإنما أوصيكم بآخرتكم فخذوا من دار الفناءِ لدار البقاء، واجعلوا الدنيا كشيءٍ فارقتموه، فوالله لتفارِقُنّها، واجعلوا الموت كشيءٍ ذُقْتموه، فوالله لتذوقُنّه، واجعلوا الآخرة كشيءٍ نزلتموه، فوالله لَتنزِلُنّها، وهي دارُ الناس كلّهم ليس من الناس أحدٌ يَخرج لسفر إلّا أخَذ له أهبَته، فمن أخذ لسفَره الذي يُصلحه اغتبط، ومن خرج إلى سفرٍ لم يأخذ له أهبته ندم فإذا ضَحِيَ لم يجد ظلّا، وإذا ظمىءَ لم يجد ماءً يتروّى به، وإنما سفَر الدنيا منقطع، وأكْيس الناس من قام يتجهّز لسفَرٍ لا ينقطع[1].

● وعن قَبِيصة بن قيس العَنْبري قال: كان الضحاك بن مُزَاحم إذا أمسى بكى فيُقَالُ له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عَمَلي[2].

● وعن كنانة بن جبلة السلمي قال: قال بكر بن عبدالله: إذا رأيت مَن هو أكبر منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضلٌ أخِذوا به، وإذا رأيث منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثتُه[3].

● وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأىّ شيءٍ فُضّل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنّا لنصلي، ولئن كان يصوم إنّا لنصوم، وإنْ كان يغزُو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنّا لنحجُّ.

قال فكنّا في بعض مَسيرنا في طريق الشام ليلةً نتعشّى في بيتٍ إذ

---

(١) صفة الصفوة: ١٥١/٤.

(٢) صفة الصفوة: ١٥٠/٤.

(٣) صفة الصفوة: ٢٤٨/٣.

طَفِيءِ السراجُ فقام بعضنا فأخذ السراج [وخرج يَستصبح[1] فمكث هنيهة ثم جاءَ بالسّراج] فنظرتُ إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلّت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فُضّل هذا الرجل علينا، ولعله حين فَقَدَ السراج فصار إلى الظُلمة ذكَر القيامة[2].

• ورُوِي عن المرُّوذي، قال: قلتُ لأحمد: كيف أصبحت؟ قال: كيف أصبح مَن ربُّه يُطالبُه بأداء الفرائض، ونبيُّه يُطالبه بأداء السُّنة، والملَكانِ يطلُبانه بتصحيح العمل، ونفسه تُطالبه بهواها، وإبليسُ يُطالبه بالفحشاء، ومَلَكُ الموت يُراقب قبضَ روحه، وعِياله يُطالبونه بالنفقة؟![3].

• وقال ابن خُبيق: قال لي حذيفة المرعشي: إنما هي أربعة: عَيناك، ولسانك، وهَوَاك، وقلبك. فانظر عَيْنيك لا تنظر بهما إلى ما لا يحلّ لكْ، وانظُر لسانك لا تقُل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكُن فيه غِلّ ولا دغل على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهوى شيئاً، فما لم تكن فيك هذه الأربع الخصال فالرّماد على رأسك[4].

• وحكى القاضي حسينٌ عن القفّال أستاذِه أنّه كان في كثيرٍ من الأوقات يقعُ عليه البكاءُ حالةَ الدرسِ، ثم يرفعُ رأسَهُ ويقولُ: ما أغفلَنا عما يُرادُ بنا[5].

• وعن مخوّل قال: جاءني بهيم العجلي يوماً فقال لي: تعلم لي رجلا من جيرانك أو إخوانك يريد الحج ترضاه يُرافقني؟ قلت نعم فذهبت إلى رجل من الحيّ له صلاح ودين فجمعت بينهما وتواطَيا[6] على المرافقة. ثم انطلق بهيم

---

(١) خرج يستصبح: أي يبحث عما يوقد به المصباح.

(٢) صفة الصفوة: ٤/١٤٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٢٧.

(٤) صفة الصفوة: ٤/٢٦٨.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١٧/٤٠٧.

(٦) تواطيا: اتفقا.

إلى أهله، فلما كان بعد أتاني الرجل فقال: يا هذا أحب أن تزوى عنى صاحبك وتطلب رفيقاً غيرى. فقلت: ويحك فلِمَ؟ فوالله ما أعلم في الكوفة له نظيراً في حُسن الخُلق والاحتمال، ولقد ركبت معه في البحر فلم أر إلا خيراً. قال: ويحك حُدِّثت أنه طويل البكاء لا يكاد يفتر، فهذا ينغّص علينا العيش سفرنا كلّه. قال: قلت ويحك إنما يكون البكاء أحياناً عند التذكرة يَرِقّ القلبُ فيبكى الرجل، أو ما تبكى أنت أحياناً؟ قال: بلى ولكنه قد بلغني عنه أمر عظيم جداً من كثرة بكائه. قال: قلت اصحبْه فلعلك أن تنتفع به. قال: أستخير الله.

فلما كان اليوم الذي أرادا أن يخرجا فيه جِيء بالإبل ووُطِّىء[1] لهما فجلس بهيم في ظل حائط فوضع يده تحت لحيته وجعلت دموعه تسيل على خدّيه، ثم على لحيته ثم على صدره حتى والله رأيت دموعه على الأرض.

قال: فقال لي صاحبي: يا مُخوِّل قد ابتدأ صاحبك، ليس هذا لي برفيق. قال: قلت: ارفق، لعله ذكر عياله ومفارقته إياهم فرق. وسمعها بهيم فقال: يا أخي والله ما هو بذاك وما هو إلا أنّي ذكرت بها الرحلة إلى الآخرة. قال: وعلا صوته بالنحيب.

قال: يقول لي صاحبي: والله ما هي بأول عداوتك لي وبُغضك إياى، مالي ولبهيم؟ إنما كان ينبغي أن ترافق بين بهيم وبين داود الطائي وسلام أبو[2] الأحوص، حتى يبكى بعضهم إلى بعض حتى يشتفوا أو يموتوا جميعاً.

قال: فلم أزل أرفق به وأقول؟ ويحك لعلّها خير سفرة سافرتها.

قال: وكان طويل الحج رجلا صالحاً إلا أنه كان رجلاً تاجراً موسراً مقبلا على شأنه، لم يكن صاحب حزن ولا بكاء، قال: فقال لي: قد وقعت مرّتي هذه ولعلها أن تكون خيرة.

---

(١) وُطِّىء لهما: مُهِّد لهما وهُيِّىء.

(٢) في صفة الصفوة: سلاّم بن الأحوص، والصواب أبو الأحوص. انظر التقريب ترجمة ٢٧٠٣ واسمه سلام بن سليم الحنفي الكوفي ت ١٧٩هـ.

قال: وكل هذا الكلام لا يعلم به بهيم ولو علم بشيء منه ما صاحبه.

قال: فخرجا جميعاً حتى حجّا ورجعا. ما يرى كل واحد منهما أن له أخاً غير صاحبه. فلما جئت أسلّم على جاري قال لي: جَزاك الله يا أخي عنّي خيراً ما ظننت أن في هذا الخلق مثل أبي بكر، كان والله يتفضل عليّ في النفقة وهو مُعدِم وأنا موسر، ويتفضل عليّ في الخدمة وأنا شابّ قوى وهو شيخ ضعيف، ويطبخ لي وأنا مُفطر وهو صائم.

قال: فقلت: فكيف كان أمرك معه في الذي كنت تكرهه من طويل بكائه؟ قال ألِفْتُ: والله ذاك البكاء وسرّ قلبي حتى كنت أساعده عليه، حتى تأذى بنا أهل الرّفقة. قال: ثم والله ألفوا ذلك فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكَوا وجعل بعضهم يقول لبعض: ما الذي جعلهم أولى بالبكاء منا والمصير واحد؟ قال: فجعلوا والله يبكون ونبكي.

قال: ثم خرجت من عنده فأتيت بهيماً فسلمت عليه وقلت: كيف رأيت صاحبَك؟ قال: كخير صاحب، كثير الذكر لله عز وجل طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة محتمل الهفوات للرفيق، جزاك الله عني خيراً[1].

* * *

---

(١) صفة الصفوة: ٣/١٧٩-١٨٢.

□ ٣ـ السلف وكراهيتهم للشهرة □

• عن حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبّعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعوا فإنه ذلّة للتابع وفتنة للمتبوع[١].

• وعن الحارث بن سويد قال: قال عبدالله لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب[٢].

• وعن بسطام بن مسلم قال: كان محمد بن سيرين إذا مشى معه رجل قام وقال: ألك حاجة؟ فإن كان له حاجة قضاها. فإن عاد يمشي معه قام فقال له ألك حاجة؟[٣].

• وقال الحسن[٤]: وكنت مع ابن المبارك يوماً فأتينا على سقاية[٥] والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزْحَموه ودفعوه فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا. يعني حيث لم نُعْرَف ولم نُوقَّر.

قال وبينا هو بالكوفة يقرأ عليه كتاب المناسك. انتهى إلى حديث وفيه: قال عبدالله وبه نأخذ. فقال: مَن كتب هذا من قولي؟ قلت: الكاتب الذي كتبه. فلم يزل يحكّه بيده حتى دَرَسَ. ثم قال: ومن أنا حتى يُكتب قولي؟[٦].

---

(١) صفة الصفوة: ١/٤٠٦.

(٢) صفة الصفوة: ١/٤٠٦،٤٠٧.

(٣) صفة الصفوة: ٣/٢٤٣.

(٤) من تلاميذ ابن المبارك: الحسن بن الربيع، والحسن بن عرفة، والحسن بن عيسى بن ماسرجى فلعله أحدهم. انظر سير أعلام النبلاء: ٨/٣٨٠.

(٥) أي موضع السقى أو ما يبنى لجمع الماء.

(٦) صفة الصفوة: ٤/١٣٥.

● وعن الحسين بن الحسن المروزي قال: قال عبدالله بن المبارك: كن محبًا للخُمول[1] كراهيةَ الشهرة ولا تُظهر من نفسك أنك تُحبّ الخمول فترفعَ نفسك فإنَّ دعواك الزهدَ من نفسك هو خروجك من الزهد لأنّك تجرّ إلى نفسك الثناءَ والمدْحة[2].

● وعن أحمد بن يونس اليربوعي: حدّثنا معاويةُ بنُ حفص، عن داود بن مهاجر، عن ابن مُحَيريز؛ سمع فَضَالة بن عُبيد، وقلتُ له: أوصني قال: خِصالٌ ينفعُكَ الله بهنَّ؛ إن استطعتَ أن تَعْرِف ولا تُعْرَف، فافعل وإن استطعت أن تسمع ولا تَكَلَّم، فافعل، وإن استطعت أن تَجْلِسَ ولا يُجْلَسَ إليك، فافعل[3].

● وعن رجل قال: رأيتُ أثر الغمّ في وجه أبي عبدالله [يعنى الإمام أحمد] وقد أثنى عليه شخص، وقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيراً. قال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً. مَن أنا ومَا أنا؟![4].

● وعن محمد بن المنكدر: قال: كانت لي سارية في مسجد رسول الله ﷺ أجلس أصلّي إليها بالليل فقَحط أهل المدينة سنة فخرجوا يستسقون فلم يُسقَوْا فلما كان من الليل صلّيتُ عِشاء الآخرة في مسجد رسول الله ﷺ ثم جئت فتساندت إلى ساريتي فجاء رجل أَسْوَد تعلوه صفرة متّزِر بكساء وعلى رقبته كساء أصغر منه. فتقدم إلى السارية التي بين يدي وكنتُ خلفه. فقام فصلى ركعتين ثم جلس فقال: أيْ رَبِّ خرج أهل حَرم نبيك يستسقون فلم تَسقهم فأنا أقسم عليك لَمَا سقَيتهم.

قال ابن المنكدر: فقلت: مجنون. قال: فما وضع يده حتى سمعتُ الرعد

---

(١) الخمول معناه هنا الخفاء وعدم الشهرة، وليس المراد به الكسل. راجع القاموس المحيط مادة (خمل).
(٢) صفة الصفوة: ١٣٧/٤.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١١٦/٣.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢٥/١١.

ثم جاءت السماء بشيء من المطر أهمّني الرجوعَ إلى أهلي فلما سمع المطرَ حمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها قطّ. قال: ثم قال: ومن أنا وما أنا حيث استجبتَ لي، ولكن عُذْتُ بحمدك وعُذْتُ بطَوْلك. ثم قام فتوشح بكسائه الذي كان متّزراً به وألقى الكساء الآخر الذي كان على ظهره في رجليه، ثم قام فلم يزل قائماً يصلّي حتى إذا أحسَّ الصبح سجد وأوتر وصلّى ركعتي الصبح ثم أقيمت صلاة الصبح فدخل في الصلاة مع الناس ودخلتُ معه فلما سلّم الإمام قام فخرج وخرجت خلفه حتى انتهى إلى باب المسجد فخرج يرفع ثوبه ويخوض الماء فخرجتُ خلفه رافعاً ثوبي أخوض الماء فلم أدْر أين ذهب.

فلما كانت الليلة الثانية صلّيتُ العشاء في مسجد رسول الله ﷺ ثم جئت إلى ساريتي فتوسّدت إليها وجاء فقام فتوشح بكسائه وألقى الكساء الآخر الذي كان على ظهره في رجليه وقام يصلّي. فلم يزل قائما حتى إذا خشي الصبح سجد ثم أوتر ثم صلّى ركعتي الفجر وأقيمت الصلاة فدخل مع الناس في الصلاة ودخلتُ معه. فلما سلّم الإمام خرج من المسجد وخرجت خلفه فجعل يمشي وأتبعه حتى دخل داراً عرفتها من دُور المدينة ورجعتُ إلى المسجد.

فلما طلعت الشمس وصلّيت خرجت حتى أتيت الدار فإذا أنا به قاعد يَخرز وإذا هو إسكاف. فلما رآني عرفني وقال: أبا عبدالله مرحباً، ألكَ حاجة، تريد أن أعمل لك خُفاً؟ فجلست فقلتُ: ألست صاحبي بارحة الأولى؟ فاسودّ وجهه وصاح بي وقال: ابنَ المنكدر ما أنت وذاك؟ قال: وغضب. قال: ففَرِقْتُ والله منه وقلت: أخرجْ من عنده الآن.

فلما كان في الليلة الثالثة صلّيت العشاء الآخرة في مسجد رسول الله ﷺ ثم أتيت ساريتي فتساندت إليها فلم يَجيء. قال: قلت: إنا لله ما صنعتُ؟ فلما أصبحت جلست في المسجد حتى طلعت الشمس ثم خرجت حتى أتيت الدار التي كان فيها فإذا باب البيت مفتوح وإذا ليس في البيت شيء: فقال لي أهل الدار يا أبا عبدالله ما كان بينك وبين هذا أمس؟ قلت: ما له؟ قالوا لما خرجت من عنده أمس بسط كساءه في وسط البيت ثم لم يدع في بيته جلداً ولا قالباً

إلا وضعه في كسائه ثم حمله ثم خرج فلم ندر أين ذهب؟

قال محمد بن المنكدر: فما تركت بالمدينة داراً أعلمها إلا طلبته فيها فلم أجده، رحمه الله[1].

* * *

(١) صفة الصفوة: ٢/١٩٠-١٩٢.

• قال ثابت البُناني: قال أبو عبيدة: يا أيها الناس! إني امرؤٌ من قريش، وما منكم من أحمرَ ولا أسودَ يَفْضُلني بتقوى، إلا وَدِدتُ أني في مِسْلاخه(١).

• وعن مَعْمَر: عن أيوب، عن نافعٍ أو غيره، أن رجلاً قال لابن عُمر: يا خيرَ النَّاسِ، أو ابنَ خيرِ الناس. فقال: ما أنا بِخيرِ الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبدٌ من عباد الله، أرجو الله، وأخافُه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تُهلكُوه(٢).

• وفي «الحلية»(٣): روى أبو الأشهب، عن الرجل، قال مُطَرِّف بن عبدالله: لأنْ أبِيتَ نائماً وأصبحَ نادماً أحبُّ إليّ مِنْ أنْ أبيتَ قائماً وأصبحَ مُعْجَباً. قال الذهبي: لا أفلح ـ والله ـ من زكّى نفسَه أو أعجبته(٤).

• وعن وهب بن منبه قال: احْفَظُوا عنّي ثلاثاً: إيَّاكم وهوى مُتَّبَعاً؛ وقرينَ سوْء، وإعجابَ المرءِ بنفسه(٥).

• وقال أبو وَهْب المَرْوَزي: سألت ابن المبارك: ما الكِبْرُ؟ قال: أن تَزْدَري الناس. فسألته عن العُجْب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلِّين شيئاً شراً من العُجْب(٦).

• وقال أحمد بن [أبي] الحَوَاري: حدثنا أبو عبدالله الأنطاكي قال: اجتمع الفضيل والثَّوريُّ، فتذاكرا، فَرَقَّ سفيانُ وبكى، ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلسُ علينا رحمة

(١) سير أعلام النبلاء: ١/١٨. والمسلاخ: الجلد. ومراده أنه يود أن يكون على مثل هديه وطريقته. (انظر لسان العرب مادة «سلخ» ٣/٢٠٦٢).
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٣٦.
(٣) حلية الأولياء: ٢/٢٠٠.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/١٩٠.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٤/٥٤٩.
(٦) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٠٧.

وبركةً. فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبدالله أخاف أن لا [يكون] أضَرُّ علينا منه. ألست تخلَّصت إلى أحسن حديثك، وتخلَّصتُ أنا إلى أحسن حديثي، فتَزَيَّنْتَ لي وتزينتُ لك؟ فبكى سفيان، وقال: أحييتني أحياك الله(١).

• وقال الإمام الشافعي: إذا خفتَ على عملك العُجْبَ، فانكر رضى مَنْ تطلُب، وفي أيِّ نعيمٍ ترغبُ، ومن أيِّ عقابٍ ترهبُ. فمَنْ فكَّر في ذلك صَغُرَ عنده عَمَلُه(٢).

• وقال رشدين بن سعد: حدثنا الحجاجُ بن شداد، سمع عُبيد الله بن أبي جعفر -وكان أحد الحكماء- قال: إذا كان المرءُ يحدِّثُ في مجلس، فأعجبه الحديثُ، فليمسك. وإذا كان ساكتاً، فأعجبه السكوتُ، فليتحدَّث(٣).

• وعن سعيد بن عبدالرحمن عن أبي حازم قال: إن العبد ليعمل الحسنةَ تسرُّه حين يعملها وما خلق الله من سيئة هي عليه أضرُّ منها، وإن العبد ليعمل السيئة ثم تَسوءه حين يعملها، وما خلق الله عز وجل من حسنة أنفع له منها، وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة يتجبّر فيها ويرى أن له فضلاً على غيره، ولعل الله عز وجل يُحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً، وإن العبد ليعمل السيئة تسوءه ولعل الله عز وجل يُحدث له فيها وجَلاً فيلقَى الله وإن خوفَها لفى جَوفه باقٍ(٤).

• وعلقَ الذهبي في ترجمته لابن حزم على قوله: (أنا اتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب)؛ قال: قلت: نعم، من بلغ رُتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عِدة من الأئمة، لم يَسُغْ له أن يُقلِّد، كما أن الفقيه المُبتدىء والعامي الذي يَحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغُ له الاجتهاد أبداً، فكيف يَجتهدُ، وما الذي يقول؟ وعلام

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٣٩/٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٢/١٠.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٠/٦.
(٤) صفة الصفوة: ١٦٤/٢.

يبني؟ وكيف يَطيرُ ولمّا يُرَيِّشْ؟ والقِسم الثالث: الفقيه المنتهي اليَقظ الفَهِم المُحدِّث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل مع حفظِه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مُناظرته، فهذه رُتبة من بلغ الاجتهاد المُقيَّد، وتأهَّلَ للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وَضح له الحقُّ في مسألة، وثَبت فيها النص، وعَمِلَ بها أحدُ الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالك، أو الثوريّ، أو الأوزاعي، أو الشافعي، وأبي عبيد، وأحمدَ، وإسحاق، فَلْيَتَّبع فيها الحق ولا يَسْلُكِ الرخصَ، ولْيَتورَّع، ولا يَسَعُه فيها بعدَ قيام الحجة عليه تقليدٌ، فإن خاف ممن يُشغِّب عليه من الفقهاء فَلْيَتكتَّم بها ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسُه، وأحب الظهور، فيُعاقَب. ويَدخل عليه الداخلُ من نفسه، فكم من رجلٍ نَطق بالحقّ، وأمر بالمعروف، فَيُسلِّطُ الله عليه من يُؤذيه لسوء قَصده، وحُبِّه للرئاسة الدينية، فهذا داءٌ خفيٌّ سارٍ في نفوس الفقهاء، كما أنه داءٌ سارٍ في نفوس المُنفِقين من الأغنياء وأربابِ الوقوف والتُرب المُزَخْرَفة، وهو دَاءٌ خفي يَسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يَلتقونِ العدوَّ، ويَصطدِمُ الجمعان وفي نفوس المجاهدين مُخبّآتٌ وكمائنُ من الاختيالِ وإظهار الشجاعةِ ليقال[1]، والعُجبِ، ولُبْسِ القراقل[2] المذهَّبة، والخُوذ المزخرفة، والعُدد المُحلاة على نفوس مُتكبرة، وفُرسان مُتجبرة، وينضاف إلى ذلك إخلالٌ بالصلاة، وظُلم للرعية، وشُرب للمسكر، فأنّى يُنصرون؟ وكيف لا يُخذلون؟ اللهمَّ: فانصر دينَك، ووفق عبادَك. فمَن طلب العِلْم للعمل كسره العلمُ، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامقَ، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العُجْبُ، ومَقَتَتْهُ الأنفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[3] أي: دَسَّسَها بالفُجور والمعصية[4].

---

(١) أي ليقال جريء وشجاع كما في حديث الثلاثة الذين تسعر بهم النار [انظر صحيح مسلم ك. الإمارة ح ١٩٠٥ (١٥١٤/٣)].

(٢) القراقل: ضرب من الثياب، وقيل هو ثوب بغير كمين. انظر اللسان مادة (قرقل).

(٣) سورة الشمس: الآيتان ٩، ١٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٩١/١٨، ١٩٢.

٣- السلف والزهد في الدنيا

• في «الزهد» لابن المبارك: حدثنا معمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه
قال: قدم عمر الشام، فتلقاه الأمراء والعظماء، فقال: أين أخي أبو عبيدة؟ قالوا:
يأتيك الآن، قال: فجاء على ناقةٍ مخطومةٍ بحبل، فسلَّم عليه، ثم قال للناس:
انصرفوا عنا. فسار معه حتى أتى منزلَه، فنزل عليه، فلم يَرَ في بيته إلّا سيفَه
وتُرسَه ورحْلَه، فقال له عمر: لو اتخذتَ متاعاً، أو قال شيئاً، فقال: يا أمير
المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل[1].

• وعن نعيم بن حماد: حدثنا ابن المبارك، حدثنا محمد بن مُطرِّف، حدثنا
أبو حازم، عن عبدالرحمن بن سعيد بن يربوع، عن مالك الدار[*] أن عمر
رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار، فقال لغلام: اذهب بها إلى أبي عُبيدة، ثم
تلهَّ ساعةً في البيت حتى تنظرَ ما يصنع، قال: فذهب بها الغلام فقال: يقولُ
لك أميرُ المؤمنين، خذ هذه، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية!
اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذَها، فرجع الغلامُ
إلى عمر، وأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل. فأرسله بها إليه، فقال
معاذ: وصلَه الله. يا جاريةُ! اذهبي إلى بيت فلان بكذا، ولبيت فلان بكذا.
فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين، فأعطنا، ولم يبق في الخرقة
إلا ديناران، فدحا[2] بهما إليها. ورجع الغلامُ، فأخبر عمر، فَسُرَّ بذلك، وقال:
إنهم إخوة بعضهم من بعض[3].

• وعن أبي إسماعيل الترمذي قال: حدثنا سليمان بن أيوب بن عيسى بن موسى،
حدثني أبي عن جدي عن موسى عن طلحة عن أبيه أنه أتاه مال من حَضْرَمَوْت

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦/١.

(*) مالك الدار: مولى لعمر بن الخطاب روى عنه وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.
انظر ترجمته في الطبقات (٨/٥).

(٢) دحا: رمى وألقى.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٥٦/١.

سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ. فقالت له زوجته: مالك؟ قال: تفكرتُ منذ الليلة، فقلت: ما ظَنُّ رجلٍ بربه يبيتُ وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت، فادعُ بجفانٍ وقصاعٍ فقسّمه. فقال لها: رَحمكِ الله، إنّكِ موفّقةٌ بنتُ موفّقٍ، وهي أم كلثوم بنت الصّدّيق، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى عليّ منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد! أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنتِ منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي. قالت: فكانت صرة فيها نحوُ ألف درهم[1].

● وعن الثوري: عن أبي قيس، عن هُزيل بن شُرحبيل، عن عبدالله بن مسعود قال: من أراد الآخرة أضرَّ بالدُّنيا، ومن أراد الدنيا، أضرَّ بالآخرة، يا قوم فأضرُّوا بالفاني للباقي[2].

● وعن عبدالرحمن بن يزيد عن عبدالله بن مسعود قال: أنتم أطول صلاةً وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم[3].

● وعن الأوزاعي، عن بلال بن سعد، أن أبا الدرداء قال: أعوذ بالله من تفرقة القلب. قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يُجعل لي في كل واد مال[4].

● وقال أبو عبيدة بن معن: عن الأعمش، عن أبي البختري قال: جاء الأشعثُ بن قيس وجريرُ بن عبدالله، فدخلا على سلمان في خُصٍّ، فسلما وحيّياه، ثم قالا: أنتَ صاحبُ رسول الله ﷺ؟ قال: لا أدري. فارتابا قال: إنما صاحبُه من دخل معه الجنة. قالا: جئنا مِن عند أبي الدرداء، قال: فأين هديّتُه؟ قالا: ما معنا هدية. قال: اتقيا الله، وأديا الأمانة، ما أتاني أحد مِن عنده إلا بهدية، قالا: لا ترفع علينا

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣١/١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٩٦/١.
(٣) صفة الصفوة: ٤٢٠/١.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٤٨/٢.

هذا، إن لنا أموالاً فاحتكِمْ، قال: ما أُريدُ إلا الهديةَ، قالا: والله ما بعث معنا بشيءٍ إلا أنه قال: إنَّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به، لم يبغ غيره، فإذا أتيتُماه، فأقرِناه مني السلام. قال: فأيّ هديةٍ كنتُ أُريدُ منكما غيرَ هذه؟ وأيُّ هديةٍ أفضلُ منها[1]؟.

• وقال قتادة: لمَّا احتُضِر عامرٌ[2] بكى، فقيل: ما يُبكيك؟ قال: ما أبكي جَزَعاً من الموْت، ولا حِرْصاً على الدُّنيا، ولكنْ أبكي على ظَمأ الهواجر، وقيام اللَّيل[3].

• وقال موسى التيمي [في نعته لعبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان]: ما رأيتُ أحداً أجمعَ للدين والمملكة والشرف منه. وقيل: كان يشترى أهل البيت فيكسوهم ويُعتقهم ويقول: أستعينُ بهم على غمرات الموت، فمات وهو نائم في مسجده. وقيل: كان كثيرَ العبادةِ والتألُّه، رآه علي بن عبدالله بن عباس فأعجبه نُسُكُه وهديُه، فاقتدى به في الخير[4].

• وعن أبي العباس السَّراج: سمعتُ إبراهيم بن بشّار، حدثني علي بن الفُضَيل، سمعتُ أبي يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزُّهد والتقلُّل، والبُلغةِ، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟ قال: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصُونَ وجهي، وأُكْرِمَ عِرضي، وأستعين به على طاعة ربي. قال: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تمَّ ذا[5].

• وعن زياد بن ماهك قال: كان شداد بن أوس يقول: إنكم لن ترَوْا من الخير إلا أسبابه، ولن ترَوا من الشر إلا أسبابه، الخير كله بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار، وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرّ والفاجر،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥٤٩/١.

(٢) هو أبو عبدالله عامر بن عبد قيس التميمي البصري؛ من عباد التابعين رآه كعب الأحبار فقال هذا راهب هذه الأمة. (السير ١٥/٤).

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٩/٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٣٨٧/٨.

والآخرةَ وعْد صادق يحكم فيها ملك قاهر. ولكلٍ بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا[1].

● وعن عبدالله بن أخت مسلم بن سعد أنه قال: أردت الحج فدفع إلى خالي مسلم عشرة آلاف درهم وقال لي: إذا قدمت المدينة فانظر أفقر أهل بيت بالمدينة فأعطهم إياها. فلما دخلت سألت عن أفقر أهل بيت بالمدينة فدُللت على أهل بيت فطرقت الباب فأجابتني امرأة من أنت؟ فقلت أنا رجل من أهل بغداد أودعت عشرة آلاف وأمرت أن أسلمها إلى أفقر أهل بيت بالمدينة وقد وُصفتم لي فخذوها فقالت: يا عبدالله إنّ صاحبك اشترط أفقر أهل بيت وهؤلاء الذين بإزائنا أفقَر منا فتركتهم وأتيت أولئك فطرقت الباب فأجابَتني امرأةٌ فقلت لها مثل الذي قلت لتلك المرأة. فقالت: يا عبدالله نحن وجيراننا في الفقر سواء فاقسمْها بيننا وبينهم[2].

● وعن إبراهيم بن شبيْب بن شيْبة قال: كنا نتَجالس في الجمعة فأتى رجل عليه ثَوب واحد مُلتَحِف به فجَلس إلينا فألقى مَسْألة فما زِلنا نتكلم في الفقه حتى انصرَفْنا. ثم جاءَنا في الجمعة المقبلة فأحْبَبْناه وسألناه عن مَنْزِله فقال: أنزل (الحَرْبيَّة) فسألناه عن كُنيته فقال: أبو عبدالله. فرغِبنا في مجالسته ورأينا مجلِسنا مَجْلِس فقه. فمكثنا بذلك زماناً ثم انْقطعَ عنا فقال بعضُنا لبعض: ما حالنا؟ قد كان مجلِسُنا عامِراً بأبي عبدالله وقد صار مُوحِشاً فوعد بعضُنا بعضاً إذا أصْبَحْنا أن نأتي (الحربيَّة) فنسأل عنه. فأتينا (الحربيَّة) وكنا عَدَداً فجعلنا نستَحْي أن نسألَ عن أبي عبدالله. فنظرنا إلى صِبْيانٍ قد انصرفوا من الكتَّاب فقلنا: أبو عبدالله. فقالوا: لعلكم تعْنون الصيَّاد؟ قلنا نعم. قالوا: هذا وقتُه الآنَ يجيءُ. فقعدنا ننتظره فإذا هو قد أقبل مُؤتَزِراً بِخِرْقةٍ وعلى كتفه خِرْقة ومعه أطْيارٌ مذبَّحة وأطيارٌ أحياءٌ. فلما رآنا تَبسَّم إلينا وقال: ما جَاء بكم؟ فقلنا: فَقَدْناك وقد كنتَ غمرتَ مجلسنا فما غيّبك عنا؟ قال: إذاً أَصْدُقكم: كان لنا جَار كنت أسْتعير منه كلَّ يوم

---

(١) صفة الصفوة: ١/٧٠٩.

(٢) صفة الصفوة: ٢/٢٠٦.

ذاك الثوبَ الذي كنتُ آتيكم فيه وكان غريباً فخرج إلى وطَنه فلم يكن لي ثوب آتيكم فيه هل لكم أن تَدْخلوا المنزلَ فتأكلوا مما رَزَق الله عز وجل؟ فقال بعضنا لبعض: ادخلوا منزله فجاءَ إلى الباب فسلَّم ثم صَبر قليلاً ثم دَخَل فأذِن لنا فدخلنا فإذا هو قد أتى بِقِطَع من البَوارى فبَسَطَها لنا فقعدنا فدخل إلى المرأة فسلَّم إليها الأطيار المذبُحة وأخذ الأطيارَ الأحياء ثم قال: أنا آتيكم إن شاءَ الله عن قريب فأتى السوقَ فباعها واشترى خُبزاً وقد صَنَعَتِ المرأةُ تلك الطيرَ وهيَّأته فقدم إلينا خُبزاً ولحمَ طيرٍ فأكلنا فجعل يقوم فيأتينا بالملح والماء فكلما قام قال بعضنا لبعض: رأيتم مثلَ هذا؟ ألا تُغيّرون أمرَه وأنتم سادة أهل البصرة؟ فقال أحدهم: عليَّ خمسمائة. وقال الآخر: عليَّ ثلثمائة. وقال هذا، وقال هذا، وضَمِن بعضهم أن يأخذَ له من غَيْره. فبلغ الذي جمعوا في الحِسَاب خمسةَ آلاف درْهم فقالوا: قوموا بنا نذهب فنأتيَه بهذا ونسأله أن يُغيِّر بعض ما هو فيه.

فقمنا فانصرفنا على حالنا رُكباناً فمررنا بالمربَد[1] فإذا محمد بن سليمان أمير البصرة قاعد في مَنظَرة[2] له فقال: يا غلام ائتني بإبراهيم بن شبيب بن شَيْبة من بين القوم. فجئتُ فدخلت عليه فسألني عن قِصَّتنا ومن أين أقبلنا فصَدَقْتُه الحديثَ. فقال: أنا أسْبِقُكم إلى بِره. يا غلام ائتني بِبَدْرة دراهم فجاءَ بها فقال: ائتني بغلامٍ فرّاش فجاءَ فقال: احمل هذه البَدْرة مع هذا الرجل حتى تَدْفعها إلى من أمرناه.

ففرحت ثم قمت مسرعاً فلما أتيت الباب سلَّمت فأجابني أبو عبدالله ثم خرج إلَيّ فلما رأى الفرَّاش والبَدْرة على عُنقه كأني سَفَيْتُ[3] في وجهه الرَّماد وأقبل عليّ بغيْر الوجْه الأول فقال: مالي ولك ياهذا؟ أتريد أن تَفْتِنَني؟ فقلت: يا عبدالله اقعد حتى أخبرك أنه من القصة كذا وكذا، وهو الذي تعلم أَحَد الجبَّارين، يعني محمد بن سليمان، ولو كان أمَرَني أن أضَعَها حيثُ أرَى لرجعتُ

---

(١) المربد: من أسواق العرب المشهورة في البصرة.

(٢) المنظرة: ما ارتفع من البناء مشرفاً على ما تحته (شرفة).

(٣) سفيت: ذررت ونثرت.

إليه فأخبرتُه أنّي قد وضعتها. فالله الله في نفسك. فازداد عليّ غيْظاً وقامَ فدخل منزله وأصْفَقَ البابَ في وجهي، فجعلت أقدّم وأؤخّر ما أدرى ما أقول للأمير. ثم لم أجد بدًّا من الصدق فجئتُ فأخبرته الخبر فقال: حَروريٌّ[1] والله، ياغلامُ عليَّ بالسيف. فجاءَ بالسيف فقال له: خذ بيد هذا الغلام حتى يذهبَ بك إلى هذا الرجل فإذا أخرجه إليك فاضْرب عُنقه وائتني برأسه.

قال إبراهيم: فقلت أصلح الله الأمير، الله الله، فوالله لقد رأينا رجلاً ما هو من الخوارج ولكنى أذهب فآتيك به وما أريد بذلك إلا افتداءً منه. قال فضَمَّننيه فمضيت حتى أتيت الباب فسلّمت فإذا المرأة تَحِنُّ وتبكى، ثم فَتَحَتْ الباب وتوارتْ فأذِنتْ لي فدخلت فقالت ما شأنكم وشأن أبي عبدالله؟ فقلت: ما حالُه؟ قالت: دَخَل فمال إلى الرُّكى فنزع منها ماءً فتوضأ ثم سمعته يقول: اللهم اقبِضْنى إليك ولا تفتِنِّي. ثم تمدد وهو يقول ذلك.

فلحقته وقد قضى فهو ذاك ميت. فقلت: ياهذه إن لنا قصة عظيمة فلا تُحدثوا فيه شيئاً. فجئت محمد بن سليمان وأخبرته الخبر فقال: أنا أركب فأصلّى على هذا. قال: وشاع خبره بالبصرة فشهده الأمير وعامّة أهل البصرة رحمة الله عليه[2].

* * *

(١) حروري: مفرد الحرورية وهم فرقة من الخوارج.

(٢) صفة الصفوة: ٤/٩-١٢.

□ ٦ـ السلف والزهد في الرئاسة □

• عن سفيان قال: قال الأحنف: قال لنا عمر بن الخطاب: تفقّهوا قبل أن تسودوا قال سفيان: لأن الرجل إذا فَقِهَ لم يَطلب السؤدد[١].

• وقال موسى بن عُقْبة في «مغازيه»: غزوة عمرو بن العاص هي غزوةُ ذاتِ السلاسل من مشارف الشام، فخاف عمرو من جانبه ذلك، فاستمدَّ رسولَ الله ﷺ، فانتدب أبا بكر وعمر في سراة من المهاجرين، فأمَّرَ نبيُّ الله عليهم أبا عبيدة، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم، فقال المهاجرُون: بل أنت أمير أصحابك، وأميرُنا أبو عبيدة. فقال عمرو: إنما أنتم مَدَدٌ أُمددتُ بكم. فلما رأى ذلك أبو عُبيدةَ بنُ الجراح، وكان رجلاً حَسَنَ الخُلُق، ليِّن الشِّيمَةِ، متبعاً لأمر رسول الله ﷺ وعهده، فسلَّم الإمارة لعمرو[٢].

• وقال الذهبي: أخبرنا إسماعيل بن عبدالرحمن المعدِّل، أنبأنا عبدالله بن أحمد الفقيه أنبأنا محمد بن عبدالباقي، أنبأنا أبو الفضل بن خَيْرون، أنبأنا أحمد بن محمد بن غالب، بقراءته على أبي العباس بن حمدان، حدثكم محمد بن أيوب، أنبأنا أبو الوليد، أنبأنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت صِلةَ بن زُفَر عن حُذَيفةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إني أبعثُ إليكُمْ رجلاً أميناً، فاستَشْرَفَ لها أصحاب رسول الله ﷺ: «فبعث أبا عبيدةَ بن الجراح»[٣].

---

(١) صفة الصفوة: ٢/٢٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/٩٠٨. وخبر غزوة ذات السلاسل في تاريخ الطبري. ٣/٣٢، و (الكامل) في التاريخ: ٢/١٥٦، والإصابة: ٥/٢٨٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/١١. والحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما. فقد أخرجه البخاري بنحوه في فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح ح ٣٧٤٥ (فتح ٧/١١٦)، ومسلم في صحيحه ح ٢٤٢٠ في الفضائل باب فضل أبي عبيدة (٤/١٨٨٢). والغرض من سوق هذا الخبر هنا بيان أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يستشرفوا للإمارة إلا لنيل شهادة الرسول ﷺ للأمير الذي يبعثه بالأمانة.

● وقال أبو بكر الحنفي عبد الكبير: حدثنا بُكير بن مسمار، عن عامر بن سعد أنَّ أباه سعداً، كان في غَنَم له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: ياأبتِ أرَضيتَ أن تكون أعرابيًا في غنمك، والناسُ يتنازعون في الملك بالمدينة، فضرب صدر عمر، وقال: اسكت، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّ وجل يُحبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ»[1].

● وعن ابن سعد أنبأنا عبد العزيز الأويسي، حدثنا عبدالله بن جعفر، عن أم بكر، عن أبيها المِسْوَر قال: لما وَلِيَ عبدالرحمن بن عوف [الشورى] كان أحب الناس إليَّ أنْ يَلِيَه، فإنْ تَرَكَه، فَسَعْدٌ. فلحقني عمرو بن العاص فقال: ما ظَنُّ خالك عبد الرحمن بالله، إن وَلَّى هذا الأمرَ أحداً، وهو يعلم أنه خيرٌ منه؟ فأتيتُ عبدَ الرحمن فذكرتُ ذلك له. فقال: والله لأنْ تُؤْخَذَ مِدْيَةٌ، فتُوضَعَ في حَلقي، ثم يُنفَذَ بها [إلى الجانب الآخر] أحبُّ إليَّ مِنْ ذلك[2].

● عن ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة، عن يحيى بن سعيد، عن أبي عبيد بن عبدالله ابن عبدالرحمن بن أزهر، عن أبيه، عن جده أنَّ عثمان اشتكى رُعافاً، فدعا حُمْران، فقال: اكتب لعبدالرحمن العَهْدَ من بعدي، فكتبَ له، وانطلق حُمْران إلى عبدالرحمن، فقال: البُشْرىٰ! قال: وما ذاك؟ قال: إنَّ عثمانَ قد كتب لك العهد مِنْ بعده. فقام بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم إنْ كانَ من تولية عثمان إياي هذا الأمر، فأمتني قبله. فلم يمكث إلا ستة أشهر حتى قبضه الله[3].

●وعن جُوَيْرِيَةَ بنِ أسماء: عن مالك، عن الزهري، عن سعيد أنَّ سعدَ بنَ أبي وقاص

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/١٠٢. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه في الزهد ح ٢٩٦٥ (٤/٢٢٧٧)، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده: ١/١٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/٨٧، ٨٨، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/١/٩٤، ٩٥ ورجاله ثقات غير أم بكر بنت المسور فإنها لا تعرف.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/٨٨.

ارسل إلى عبدالرحمن رجلاً وهو قائم يخطبُ: أن ارفع رأسك إلى أمر الناس. أي ادعُ إلى نفسك. فقال عبدالرحمن: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ؟ إنه لَنْ يَلِيَ هذا الأمرَ أحدٌ بعد عمرَ إلّا لامَهُ النّاسُ[1].

• وقال الذهبي: من أفضل أعمال عبدالرحمن [ابن عوف] عزلُه نفسَه من الأمر وقتَ الشورى، واختيارُه للأمة مَنْ أشار به أهل الحلّ والعقد، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولّاها ابنَ عمه وأقربَ الجماعة إليه سعدَ بنَ أبي وَقّاص[2].

• وعن أحمد بن عبدالرحمن بن وَهْب: حدثنا عمّي، حدثني عبدالله بن عيّاش، عن أبيه، أن يزيد بن المهلّب لمّا ولي خُراسان قال: دُلّوني على رجلٍ كاملٍ لخصالِ الخَيْر، فَدُلَّ على أبي بُرْدة الأشعريّ. فلما جاء، رآه رجلاً فائقاً، فلما كلّمهُ رأى مِنْ مَخْبرتِهِ أفضلَ مِنْ مرآته، فقال: إنّي وَلّيتُك كذا وكذا من عملي، فاستعفاه، فأبىٰ أن يُعفيَه، فقال: أيُّها الأميرُ، ألا أخبرك بشيء حَدَّثنيه أبي، أنّه سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: هاتِه. قال: إنّهُ سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَلّى عَمَلاً وهُوَ يَعْلَمُ أنّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ العَمَلِ بأهْلٍ، فَلْيَتَبَوّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ». وأنا أشهدُ أيُّها الأمير أنّي لستُ بأهلٍ لِما دعَوْتني إليه. فقال: ما زدْتَ على أنْ حَرَّضْتَنا على نفسِك ورَغَّبْتَنا فيك، فاخرجْ إلى عَهْدك فإنّي غيرُ مُعْفيك. فخرج ثُمَّ أقام فيهم ما شاء الله أن يُقيمَ؛ فاستأذَنَ في القُدوم عليه، فأذِنَ له، فقال: أيُّها الأميرُ ألا أُحَدِّثك بشيءٍ حدَّثنيهِ أبي سمعَهُ مِنْ رسول الله ﷺ؟ قال: قال: «ملعونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ الله، ومَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوجْهِ الله ثُمَّ مَنَع سَائِلَهُ، مَا لَمْ يَسْأَلْ هُجْراً» وأنا سائِلُكَ بوجهِ الله إلّا ما أعفيتني أيُّها الأميرُ مِنْ عملِكَ. فأعفاه. رواه الروياني في مسنده عن أحمد[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء: ٨٧/١ ورجاله ثقات، وسعيد هو ابن المسيب.

(2) سير أعلام النبلاء: ٨٦/١.

(3) سير أعلام النبلاء: ٣٤٥/٤ ورجاله ثقات إلا عبدالله بن عياش، فقد قال أبو حاتم: ليس بالمتين، صدوق يكتب حديثه، وهو قريب من ابن لهيعة. وضعّفه أبو داود =

• وعن يوسُف بن أسْباط: سمعت سُفيان يقول: ما رأيت الزُّهْدَ في شيء أقلَّ منه في الرِّئاسة، ترى الرَّجل يزهدُ في المطعم [والمشرب] والمال والثِّياب، فإن نوزِع الرئاسة، حامى عليها، وعادى[1].

* * *

= والنسائي، وأخرج له مسلم في الشواهد لا في الأصول. والخبر بتمامه أورده ابن عساكر في تاريخه (عاصم عايذ) ٣٨٧ من طريق الروياني. والحديث الثاني «ملعون من سأل ...» رواه الطبراني أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري وحسنه الحافظ العراقي، وقال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وهو ثقة، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح، فإذا ضُمَّ هذا السند إلى سند الروياني حدث منهما قوة.

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/٢٦٢.

□ ٧ـ السلف والفقه في الدين □

● قال ابنُ عُيَيْنة: قال عمرو بن العاص: ليس العاقلُ مَنْ يعرفُ الخير من الشرّ، ولكن هو الذي يعرفُ خيرَ الشرَّين[١].

● وعن نُعيم، حدثنا أحمد بن جعفر بن سَلم، حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا مَنصور بن أبي مُزاحِم، حدثنا عَنبسةُ الخَثْعَميّ، وكان من الأخيار سمعت جعفر بن محمد يقول: إياكم والخصومةَ في الدين، فإنها تشغل القلب، وتُورِثُ النِّفاق[٢].

● وقال الحافظ ابن عبد البَر في «التمهيد»: هذا كتبته مِن حفظي وغاب عني أصلي: إن عبدالله العُمري العابد كتب إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل. فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمالَ كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رجلٍ فُتِحَ له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصَّوم، وآخر فُتِحَ له في الصَّدقة ولم يُفتح له في الصَّوم، وآخر فُتِحَ له في الجهاد. فنشْرُ العلم من أفضلِ أعمال البِر، وقد رضيتُ بما فُتِحَ لي فيه، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنتَ فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبِر[٣].

● وذكر ابنُ عبدِ البَر في كتاب «العلم» له: قال ابنُ وَهْب: كان أول أمري في العبادة قبل طلبِ العلم، فَوَلِعَ بي الشَّيطانُ في ذكر عيسى بن مريم عليه السلام، كيف خَلَقَهُ الله تعالى؟ ونحو هذا، فشكوتُ ذلك إلى شيخ، فقال لي: ابنَ وَهْب، قلت: نعم. قال: اطلُب العلمَ. فكان سببَ طلبي العلم[٤].

● وقال عليُّ بنُ محمدِ بنِ أبَان القاضي: حدثنا أبو يحيى زكريا السَّاجِيُّ، حدثنا

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧٤/٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٦٤/٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١١٥/٨.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢٤/٩.

المُزنيُّ، قال: قلتُ: إنْ كانَ أحدٌ يُخرِجُ ما في ضميري، وما تَعلَّقَ به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصِرْتُ إليه، وهو في مسجدِ مصر، فلما جثوتُ بين يديه، قلتُ: هَجَس في ضميري مسألةٌ في التوحيد، فعلمتُ أنَّ أحداً لا يعلمُ عِلمكَ، فما الذي عندكَ؟ فَغضِبَ، ثم قال: أتدري أين أنتَ؟ قلتُ: نعم، قال: هذا الموضعُ الذي أغرقَ الله فيه فرعونَ. أبلغَكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ أمَرَ بالسؤالِ عن ذلك؟ قلتُ: لا، قال: هل تكلَّمَ فيه الصحابةُ؟ قُلتُ: لا، قال: تدري كم نجماً في السماءِ؟ قلتُ: لا قال: فكوكبٌ منها: تعرِفُ جنسَه، طلوعَه، أفُولَه، مِمَّ خُلِق؟ قلتُ: لا، قال: فشيءٌ تراهُ بعينكَ من الخلقِ لستَ تعرِفُه، تتكلَّمُ في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألةٍ في الوضوء، فأخطأتُ فيها، فَفرَّعَها على أربعةِ أوجهٍ، فلم أُصِبْ في شيءٍ منه، فقال: شيءٌ تحتاجُ إليه في اليوم خمسَ مرات، تَدَعُ علمه، وتتكلَّف علمَ الخالقِ، إذا هَجَس في ضميرك ذلك، فارجِعْ إلى الله، وإلى قوله تعالى: ﴿وإلهكم إلهٌ واحِدٌ لا إله إلا هُوَ الرّحمنُ الرّحِيم. إنَّ في خَلْقِ السَّمَاوات والأرْضِ﴾[1] فاستَدِلْ بالمخلوقِ على الخالقِ، ولا تتكلَّفْ علمَ ما لم يبلُغْهُ عقلُكَ. قال: فتُبْتُ[2].

● وقال أبو الحسن عبدُالملك المَيموني: قالَ رجلٌ لأبي عبدالله: ذهبتُ إلى خلفِ البَزّار أعِظُهُ، بَلغني أنّه حدَّث بحديثٍ عن الأحْوص عن عبدالله قال: «ما خلَق الله شيئاً أعظم ...» وذكر الحديث، فقال أبو عَبدالله: ما كان يَنبغي له أن يُحدِّث بهذا في هذه الأيام ـ يُريد زمنَ المِحنة ـ والمتنُ: «ما خلَق الله من سَماءٍ ولا أرْضٍ أعظمَ من آيةِ الكُرْسي»[3] وقد قال أحمدُ بن حَنبل لما أوردوا عليه هذا يومَ المِحنة: إنَّ الخَلق واقِعٌ ها هُنا على السَّماء والأرضِ وهذه الأشياء، لا على القُرآن.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٦٣، ١٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣١/١٠.

(٣) الحديث أورده السيوطي في الدر المنثور ٣٢٢/١ بلفظ مقارب وعزاه إلى أبي عبيد وابن الضريس ومحمد بن نصر عن ابن مسعود.

قال الذهبي: كذا يَنبغي لِلمُحدّث أن لا يُشهرَ الأحاديثَ التي يَتشبَّثُ بظاهرِها أعداءُ السُّنن من الجَهْميَّة، .... ، وأهلِ الأهْواءِ، والأحاديثَ التي فيها صِفاتٌ لم تثبت، فإنَّك لن تُحدِّثَ قوماً بحديثٍ لا تبلغُهُ عُقولهم، إلا كانَ فتنة لبعضهم[1]، فلا تَكْتُم العِلم الذي هو عِلمٌ، ولا تَبْذُلْهُ لِلجَهَلةِ الذين يَشْغَبُونَ عليك، أو الذين يَفْهمون منه ما يَضُرُّهُم[2].

• وعن المرُّوذي قال: أدخلتُ إبراهيم الحُصْري على أبي عبدالله ـ وكان رجلاً صالحاً ـ فقال: إن أمي رأت لك مناماً، هو كذا وكذا. وذكرتِ الجنة، فقال: يا أخي، إن سهلَ بن سلامة كان الناس يُخبِرُونه بمثل هذا. وخرج إلى سفك الدماء. وقال: الرُّؤيا تَسُرُّ المؤمن ولا تغُرُّه[3].

• وقال عبدالوهَّاب بن عبدالعَزيز التَّمِيْمي الحَنْبَلي: أخبرنا أبو الحُسَين العَتكي، قال: سمعتُ إبراهيم الحربي يقول لجماعةٍ عندَه: مَن تَعُدُّونَ الغريب في زمانكم؟ فقالَ رجلٌ: الغريبُ: مَن نأى عن وطنه. وقالَ آخَرُ: الغريبُ: من فارقَ أحبابَه. فقال إبراهيم: الغريبُ في زماننا: رجلٌ صالحٌ، عاشَ بينَ قومٍ صَالحين، إنْ أمَرَ بمعروفٍ آزروه، وإن نهى عن مُنكرٍ أعانوه، وإن احتاج إلى سبب من الدُّنيا مانوه[4]، ثم ماتوا وتَرَكوه[5].

• وذكر الذهبي في ترجمته للخليفة المعتضد بالله أن إسماعيل القاضي قال: دخلت مرَّة، فَدَفَعَ إليَّ كِتَاباً، فنظرتُ فيه، فإذا قَدْ جُمِعَ له فيه الرخص من زلل العُلَماء، فقلتُ، مُصَنِّفُ هذا زِنديقٌ. فقال: ألَم تصح هذه الأحاديث؟ قلتُ: بلى، ولكنْ مَن أباحَ المُسْكر لم يُبح المُتْعَة، ومَنْ أباح المتعة لم يبح الغِناء، ومن

---

(١) اقتباس من كلام ابن مسعود أخرجه عنه مسلم في المقدمة ١/١١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥٧٨.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٢٧.
(٤) مانوه: كفوه. من التمون.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١٣/٣٦٢.

مِنْ عالمٍ إلا وَلَه زَلَّة، ومن أَخَذَ بكل زَلل العلماء ذهب دِينُه. فأَمَرَ بالكتاب فأحرق[1].

• وقال ابن بَطَّة: سَمِعْتُ البَرْبَهَارِيّ يقول: المجالسةُ للمناصحةِ فَتْحُ باب الفَائدة، والمجالسةُ للمُناظَرةِ غَلْقُ بابِ الفائدة[2].

• ومن كلام ابن الأعرابي في ترجمة أبي الحسين النُّوري، قال: مات وهم يتكلَّمون عِنْده في شيءٍ، سكوتُهم عنه أَوْلى لأنّه شيءٌ يتكهنون فيه، ويتعسَّفون بظُنونهم، فإذا كان أولئك كذلك، فكيف بِمَنْ حدث بعدَهم؟

قال أيضاً إنما كانوا يقولون «جمع» وصورةُ الجمع عند كلّ أحدٍ بخلافها عند الآخر، وكذلك صورةُ الفَناء، وكانوا يتَّفِقُون في الأسماء، ويختلِفُونَ في معناها، لأن ما تحت الاسم غير محصور، لأنها من المَعَارِف.

قال وكذلك عِلْمُ المعْرِفة غيرُ محصورٍ لا نهاية له ولا لوجوده، ولا لذوقه. إلى أنْ قال:ـ ولقد أحسن في المقال ـ فإذا سمعت الرَّجُل يسأل عن الجَمْع أو الفَناء، أو يجيب فيهما، فاعلمْ أنّه فارغٌ، ليس من أهل ذلك إذْ أهلُهما لا يسألون عنه لِعِلْمهم أنّه لا يدرك بالوَصْف.

قال الذهبي: إي والله، دقَّقُوا وعمَّقوا، وخاضُوا في أَسْرارٍ عظيمة، ما مَعَهم على دَعْواهم فيها سوى ظنٍّ وخيالٍ، ولا وجودَ لتلك الأحوال من الفَناء والمحو والصَّحو والسُّكر إلّا مجرّد خَطَرات ووسَاوس، ما تفوَّه بعباراتهم صِدِّيق، ولا صاحبٌ، ولا إمامٌ من التَّابعين. فإن طالبتَهم بدعاويهم مقَتُوك، وقالوا: محجوب، وإن سَلَّمت لهم قِيادَك تخبَّط ما مَعَك من الإيمان، وهبَطَ بك الحال على الحَيْرة والمُحَال، ورَمَقْت العُبّاد بعين المَقْت، وأهل القرآن والحديثِ بعين البُعْد، وقُلْتَ: مساكين محجوبون. فلا حَوْلَ ولا قوّة إلّا بالله.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٣/٤٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٥/٩١.

فإنَّما التَّصوُّف[1] والتألُّه والسُّلوك والسَّيْر والمحبة ما جاءَ عن أصحابِ محمد ﷺ من الرِّضا عن الله، ولزوم تَقْوى الله، والجهاد في سبيل الله، والتأدُّب بآداب الشَّريعة من التِّلاوة بترتيل وتدبُّرٍ، والقيام بخشيةٍ وخشوعٍ، وصَوْمِ وقتٍ، وإفطار وقت، وَبَذْل المعروف، وَكَثْرة الإيثار، وَتَعْليم العَوام، والتواضع للمؤمنين، والتعزُّز على الكافرين، ومع هذا فالله يَهْدي مَنْ يَشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

والعالِمُ إذا عَرِيَ من التَّصوف[1] والتألُّه، فهو فارغ، كَمَا أن الصُّوفي إذا عَرِيَ مِنْ عِلْمِ السُّنَّة، زلَّ عن سواءِ السَّبيل»[2].

● وعلق الذهبي في ترجمته للخليفة العباسي المستنجد بالله بقوله: الإمام إذا كان له عقلٌ جيدٌ ودين متينٌ، صَلَح به أمرُ الممالك فإن ضَعُف عقلُه، وحسُنت ديانتُه، حمله الدينُ على مُشاورةِ أهل الحزْم فتسدَّدت أمورُه، ومَشَتِ الأحوالُ، وإن قلَّ دينه، ونَبُلَ رأيُه، تعبت به البلاد والعبادُ، وقد يَحْمِلُهُ نُبْلُ رأيِه على إصلاح مُلكِه ورعيَّته للدنيا لا للتقوى فإن نَقَصَ رأيُه، وقلَّ دينه وعقلُه، كَثُرَ الفسادُ، وضاعت الرعيةُ، وتعِبُوا به إلا أن يكونَ فيه شجاعةٌ وله سطوةٌ وهيبةٌ في النفوس، فينجبِرُ الحالُ، فإن كان جَباناً، قليلَ الدِّين، عديمَ الرأي، كثيرَ العَسْف، فقد تَعرَّض لبلاء عاجل ورُبما عُزِلَ وسُجِنَ إن لم يُقتل، وذهبت عنه الدنيا، وأحاطت به خطاياه وندم ـ والله ـ حيثُ لا يُغني الندمُ، ونحن آيسون اليوم من وجود إمام راشد من سائر الوجوه، فإن يسَّر الله للأمَّةِ بإمامٍ فيه كثرةُ محاسن وفيه مساوىء قليلة، فَمَنْ لنا به، اللهم فأصلِح الراعي والرعيَّة، وارحم عبادك ووفِّقْهم، وأيِّد سُلطانَهم، وأعِنْهُ بتوفيقك»[3].

---

(١) مراد الذهبي ـ رحمه الله ـ بالتصوف: الزهد في الدنيا والاجتهاد في العبادة، ولعل الأولى التعبير بذلك بدلاً من كلمة «التصوف»؛ فهي أولاً كلمة محدثة لم تكن على عهد القرون المفضلة، وهي ثانيا علمٌ على فرق ضلت عن السنة وشاب طريقها الابتداع.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٥/٤٠٩،٤١٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٤١٨.

● وقال الذهبي في روايته لمحنة وكيع بن الجراح: «وهي غريبة تورط فيها ولم يرد إلا خيراً، ولكن فاتته سكتة، وقد قال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[1]، فليتق عبدٌ ربَّه ولا يخافن إلا ذنبه. ثم ذكر المحنة فقال: قال عليّ بن خشرم: حدَّثنا وكيعٌ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبدالله البَهِيّ، أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق جاءَ إلى النَّبي ﷺ بعد وفاته، فأكبَّ عليه، فقبَّلهِ، وقال: «بأبي وأمِّي، ما أطْيَبَ حياتَكَ وميتَتَكَ»، ثم قال البهيُّ: وكان تُرِكَ يوماً وليلةً حتى رَبَا بَطْنُه، وانثَنَتْ خِنْصِرَاهُ. قال ابنُ خَشْرم: فلما حدَّثَ وكيعٌ بهذا بمكَّة، اجتمعتْ قريش، وأرادوا صَلْبَ وكيع، ونصبُوا خَشَبةً لصَلْبِه، فجاء سفيانُ بنُ عُيَيْنة، فقال لهم: الله الله! هذا فقيهُ أهل العِراق، ابنُ فقيهِه، وهذا حديثٌ معروفٌ قال سُفيان: ولم أكنْ سمِعتُه إلا أنِّي أردتُ تخليص وكيع.

قال عليُّ بنُ خَشْرم: سمعتُ الحديثَ من وكيع، بعد ما أرادُوا صَلْبَهُ، فَتعجبْتُ من جَسَارَتِه، وأخبرتُ أنَّ وكيعاً احتجَّ، فقال: إنَّ عِدَّةً من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم عُمر، قالوا: لم يَمُتْ رسول الله. فأرادَ الله أنْ يُرِيَهُم آيةَ الموت. رواها أحمدُ بنُ محمد بنِ علي بن رَزين الباشاني قال: حدثنا عليُّ بنُ خَشْرم. وروى الحديثَ عن وكيع: قُتَيبةُ بنُ سعيد[2].

فهذه زَلَّةُ عالِمٍ، فما لوكيعٍ ولرواية هذا الخَبَرِ المُنكرِ المُنقَطعِ الإسناد! كادت نفسُه أن تذهب غلطاً، والقائمون عليه مَعذُورُون، بل مأجُورُون، فإنَّهم تَخَيَّلوا من إشاعةِ هذا الخبر المردود، غضَّاً ما لمنصب النُّبُوَّة، وهو في بادىء الرَّأْيِ يُوهِمُ ذلك»[3].

● وعن زكريا الساجي: سمعتُ محمدَ بن عبدالله بن عبدالحكم يقولُ: قال لي

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ح ٤٩٩٢ كتاب الأدب باب ٨٨ ـ التشديد في الكذب (٥/٢٦٦)، وصححه الألباني (صحيح أبي داود رقم ٤١٧٧). وهو عند مسلم في المقدمة رقم ٥ بلفظ (كفى بالمرء كذبا). وقول الذهبي عن وكيع: (فاتته سكتة) يعني به أنه كان الأولى له في هذا الموضع السكوت وعدم الكلام.

(٢) انظر (الكامل) لابن عدي: ٦٥٤. (٣) سير أعلام النبلاء: ١٥٩/٩، ١٦٠.

الشافعيُّ: يا محمد، إن سألك رجلٌ عن شيءٍ من الكلام، فلا تُجِبْهُ، فإنَّه إنْ سألكَ عن دِيَةٍ، فقلتَ درهماً، أو دانقاً، قال لك: أخطأت، وإن سألكَ عن شيءٍ من الكلام، فزللتَ، قال لك: كفرتَ[1].

• وقال الربيع: سمعتُ الشافعي يقولُ: المِراءُ في الدين يُقَسِّي القلبَ، ويُورِثُ الضغائنَ[2].

• وقال الذهبي: أخبرنا المسلَّم بنْ علَّان وغيره كتابة أنَّ أبا اليُمن الكِنْديَّ أخبرهم، أخبرنا عبدالرحمن بن محمد، أخبرنا أبو بكر الخطيب، حدثنا محمد بنْ الفرج البزاز، حدثنا عبدُالله بن إبراهيم بن ماسي، حدثنا جعفر بنْ شعيب الشاشي، حدثني محمدُ بنُ يوسف الشاشي، حدثني إبراهيم بن أمية، سمعتُ طاهر بن خلف، سمعتُ المهتدي بالله محمد ابن الواثق، يقول: كان أبي إذا أراد أن يَقتُل أحداً، أحضرنا، فأتي بشيخ مخضوب مُقيَّد، فقال أبي: ائذنوا لأبي عبدالله وأصحابه، يعني: ابن أبي دُؤاد، قال: فأُدخِلَ الشيخُ، فقال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلَّم الله عليك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، بئسَ ما أدَّبَك مؤدبُك، قال الله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُم بِتحِيَّةٍ فحيُّوا بِأحْسَنَ مِنها أوْ رُدُّوها﴾[3]. فقال ابنُ أبي دُؤاد: الرجلُ متكلم. قال له: كلِّمه، فقال: يا شيخُ، ما تقولُ في القرآن؟ قال: لم يُنصِفْني، ولي السؤال. قال: سل، قال: ما تقولُ في القرآن؟ قال: مخلوقٌ. قال الشيخُ: هذا شيءٌ علِمَهُ النبيُّ ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء الراشدون، أم شيءٌ لم يعلموه؟ قال: شيءٌ لم يعلموه. فقال: سُبحان الله! شيء لم يَعْلَمْهُ النبيُّ، ﷺ علمتَه أنت؟ فخجل. فقال: أقلني، قال: المسألةُ بحالها. قال: نعم عَلِمُوه، فقال: علموه، ولم يَدْعُوا النَّاس إليه، قال: نعم. قال: أفلا وسعكَ ما وَسِعَهم؟ قال: فقام أبي، فدخل مجلساً، واستلقى، وهو يقول: شيءٌ لم يَعلَمْهُ النبيُّ ﷺ، ولا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولا الخلفاء الراشدون، علِمْتَه أنت! سبحان الله! شيءٌ عَلِمُوه، ولم يَدْعُوا النَّاس

(١، ٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/٢٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٦.

إليه، أفلا وَسِعَك ما وسعهم؟! ثم أمر برفع قيوده، وأن يعطى أربع مئة دينار، ويُؤْذَن له في الرجوع، وسقَطَ من عينه ابنُ أبي دُؤاد ولم يَمتحن بعدها أحداً[1].

● وحكى الذهبي أن بعض علماء السنة اتفقوا مع الخوارج على مواجهة الدولة العبيدية فقال: وعُوتب بعضُ العُلَماء في الخُروج مع أبي يزيد الخارجي، فقال: وكيفَ لا أخرُجُ وقد سمِعْتُ الكفرَ بأذنيّ؟ حَضَرْت عقداً فيه جمعٌ من سُنّة ومشارقة، وفيهم أبو قُضَاعة الدَّاعي، فجاء رئيسٌ، فقال كبيرٌ منهم: إلى هُنا يا سيدي ارتفعْ إلى جانبِ رسولِ الله يعني: أبا قُضَاعة، فما نطَق أحد[2].

● وخرَج أبو إسحاق الفقيه مع أبي يَزيد، وقال: هُمْ أهلُ القِبْلة، وأولئك ليسوا أهل قِبْلَةٍ. وَهُمْ بنو عَدوّ الله، فإن ظَفِرْنا بهم، لم ندخلْ تحتَ طاعةِ أبي يزيد، لأنه خارجيٌّ[3].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٣١٢/١١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٥٤/١٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٥٥/١٥.

◻ ٨ـ السلف وانقيادهم للحق ◻

● قال الذهبي: حدثنا الليث، عن عقيل عن ابن شهاب أن أبا إدريس الخولاني، أخبره أنَّ يزيد بن عُميرة، وكان من أصحاب معاذ بن جبل، قال: كان لا يجلس مجلساً إلا قال: الله حَكَمٌ قِسْطٌ تبارك اسمه، هلك المرتابون. فذكر الحديث، وفيه: فقلتُ لمعاذ: ما يُدريني أن الحكيم يقول كلمة الضلالة؟ قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال ما هذه، ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله يرجعُ ويتبعُ الحق إذا سمعه، فإنْ على الحق نوراً[١].

● وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن علمني كلمات جوامع نوافع. فقال له عبدالله: لا تشرك به شيئاً وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيباً قريباً[٢].

● وعن أبي الأحوص، عن عبدالله قال: لا يقلدنّ أحدكم دينه رجلاً فان آمن آمن وإن كفر كفر، وإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة[٣].

● وعن عبدالرحمن بن يزيد قال: قال عبدالله: لا تكونن إمّعة قالوا وما الإمّعة؟ قال: يقول أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت وإن ضلوا ضللت، ألا ليوطِّننّ أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر[٤].

● وقال الذهبي: أخبرنا إسحاق بن أبي بكر، أنبأنا ابنُ خليل، أنبأنا أبو المكارم

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٥٧/١.

(٢) صفة الصفوة: ٤١٩/١.

(٣) صفة الصفوة: ٤٢١/١.

(٤) المصدر السابق نفسه.

اللبَّان، أنبأنا أبو عليٍّ المقرىء، أنبأنا أبو نعيم الحافظ حدّثنا يوسف بن يعقوب النُّجيرمي، حدّثنا الحسنُ بن المُثنّى، حدثنا عفّان، حدّثنا همّام، سمعتُ قتادة يقول: حدّثنا مُطرِّف قال: كُنا نأتي زَيْدَ بن صُوحان فكان يقول: يا عبادَ الله، أكْرِمُوا وأجْمِلوا، فإنما وسيلةُ العباد إلى الله بخصْلتَين: الخوفِ والطَّمعِ. فأتيتُه ذاتَ يومٍ وقد كتبوا كتاباً، فنسَقُوا كلاماً من هذا النَّحْو: إنَّ الله ربُّنا، ومحمداً نبيُّنا، والقرآنَ إمامُنا، ومَنْ كان مَعَنا كُنّا وكُنّا. ومن خالَفَنا كانتْ يَدُنا عليه وكنّا وكُنّا. قال: فجعلَ يعْرِضُ الكتابَ عليهم رجُلاً رجلاً، فيقولون: أقررتَ يا فلان؟ حتى انتَهَوا إليَّ فقالوا: أقررتَ يا غلام؟ قلت: لا، قال ـ يعني زيداً: لا تعْجَلوا على الغلام، ما تقولُ يا غلام؟ قلت: إنَّ الله قد أخذ عليَّ عَهْداً في كتابه فلَنْ أُحْدِث عهداً سوى العهدِ الذي أخَذَهُ عليَّ. فرجع القومُ من عندِ آخرهم ما أقرَّ منهم أحَدٌ. وكانوا زُهاءَ ثلاثين نفساً[1].

• وقال الربيع: سمعتُ الشافعيَّ يقولُ: إذا وجدتُم في كتابي خِلافَ سنةِ رسولِ الله ﷺ فقولُوا بها، ودعُوا ما قلتُه[2].

• وعنه أيضاً: وسمعتُه يقولُ: وقد قال له رجلٌ: تأخُذُ بهذا الحديث يا أبا عبدالله؟ فقال: متى رَوَيتُ عن رسولِ الله حديثاً صحيحاً ولم آخُذْ به، فأشهدُكم أنَّ عقلي قد ذهَبَ[3].

• وقال الحُميديُّ: روى الشافعيُّ يوماً حديثاً، فقلتُ: أتأخُذُ بِه؟ فقال: رأيتني خرجتُ من كنيسةٍ، أو عليَّ زُنّارٌ، حتى إذا سمعتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به[4]؟!.

• وقال الربيعُ: وسمعتُ [الشافعي] يقولُ: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني إذ رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقُل به[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/١٩٣.
(٢،٣،٤) سير أعلام النبلاء: ١٠/٣٤.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١٠/٣٥.

• وقال الذهبي: وفي مسند الشافعي، سماعنا، أخبرني أبو حنيفة بن سماك، حدثني ابنُ أبي ذئب عن المَقْبُري عن أبي شُرَيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخيرِ النَّظَرَيْنِ: إنْ أَحَبَّ أخذَ العَقْلَ وَإنْ أَحَبَّ فَلَهُ القَوَدُ»[1].

قلتُ لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا؟ فضربَ صدرِي، وصاح كثيراً، ونال مني، وقال: أحدِّثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به: نعَم آخذُ به، وذلك الفرض عليّ، وعلى كل من سمعه. إن الله اختار محمداً ﷺ من الناس فهَداهُم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتّبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك[2].

• وقال الخطيب: أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول الله ﷺ فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم، هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي[3].

• وعن الشافعيّ قال: ما كابَرَني أحَدٌ على الحقّ ودافعَ، إلا سقَطَ من عيني، ولا قَبِله إلا هبتُه، واعتقدتُ مودّتَه[4].

• ويروى عن حاتم الأصم قال: أفرحُ إذا أصاب مَنْ ناظرني، وأحزنُ إذا أخطأ[5].

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه رقم ٤٥٠٤ كتاب الديات باب: ولي العمد يرضى بالدية. بلفظ مقارب (٦٤٤/٤)، وفي الباب عن أبي هريرة بلفظ: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يُودي وإما أن يقاده» أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الديات باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ح ٦٨٨٠ (فتح ٢١٣/١٢) وأخرجه أيضاً مسلم بلفظ مقارب حديث ١٣٥٥ (٩٨٨/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٤٢/٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤٣/٧.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٣/١٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٤٨٧/١١.

□ ٩ـ السلف والفتيا □

• عن نافع أن رجلاً سأل ابن عمر عن مسألة فطأطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته. فقال له: يرحمك الله أما سمعت مسألتي؟ قال بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألونا عنه، اتركنا رحمك الله حتى نتفهم في مسألتك، فان كان لها جواب عندنا وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا به[١].

• وعن مالك: عن نافع: كان ابنُ عُمر وابنُ عبّاس يجلسان للناس عند مقدم الحاج، فكُنْتُ أجلِسُ إلى هذا يوماً، وإلى هذا يوماً، فكان ابنُ عبّاس يُجيب ويُفتي في كل ما سئِل عنه، وكان ابنُ عُمر يَرُدُّ أكثر مما يُفتي[٢].

• وقال شُعيب بن أبي حمزة عن الزُّهري: بلغنا أن زيدَ بن ثابت كان يقولُ إذا سُئل عن الأمر: أكانَ هذا؟ فإن قالوا: نعم. حدَّث فيه بالذي يعلمُ. وإن قالوا: لم يكُنْ. قال: فذَرُوه حتى يكون[٣].

• وعن موسى بن عُلَي بنِ رباح، عن أبيه، قال: كان زيدُ بنُ ثابت إذا سأله رجلٌ عن شيء، قال آلله! كان هذا؟ فإن قال: نعم، تكلَّم فيه، وإلا لم يتكلم[٤].

• وعن سُحنون قال: كان بعضُ مَنْ مضى يُريد أن يتكلَّم بالكلمة، ولو تكلَّم بها لانتفع بها خلقٌ كثير، فيحبِسُها، ولا يتكلَّم بها مخافةَ المُباهاة. وكان إذا أعجبه الصمتُ تكلَّم، ويقول: أجرأ الناس على الفُتيا أقلُّهم عِلْماً[٥].

• وسُئل سُحنون: أيَسَعُ العالمَ أن يقول: لا أدري فيما يدري؟ قال: كل

---

(١) صفة الصفوة: ٥٦٦/١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢٢/٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٣٨/٢.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٦٦/١٢.

ما فيه كِتابٌ أو سنةٌ ثابتةٌ فلا، وأما ما كان من هذا الرأي، فإنّه يَسَعُهُ ذلك، لأنه لا يدري أمصيبٌ هو أم مُخطِىء»[1].

• وقيل إن زيادةَ الله الأميرَ بعثَ يسألُ سُحنوناً عن مسألةٍ، فلم يُجِبْه، فقال له محمدُ بنُ عُبدوس: أخْرُجْ من بلد القوم، أمسِ ترجع عن الصلاةِ خلفَ قاضيهم، واليوم لا تجيبُهم؟!. قال: أفأجِيب من يُريد أن يَتَفَكّه، يُريد أن يأخُذ قولي وقولَ غيري، ولو كان شيئاً يَقصِدُ به الدينَ لأجَبْتُه[2].

• وقال أحمد بن محمَّد بن الأزْهَر: سمعتُ عُثمان بن سَعيد الدّارِمي يقولُ: أتاني محمَّد بن الحُسَين السِّجْزِي، وكان قد كتب عن يَزيد بن هَارون، وجَعْفر بن عَون، فقالَ: يا أبا سَعيد! إنّهم يجيئوني، فيسْألُوني أن أحَدِّثَهم، وأنا أخشى أن لا يَسَعَني رَدُّهُم. قلتُ: ولِمَ؟ قال: لقول النّبي ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ»[3] فقال: إنما قال رسول الله ﷺ عن علمٍ تَعْلَمُه، وأنت لا تعلمه[4].

• وعن أيوب قال: سمعت القاسم يُسأل بِمنى فيقول لا أدري، لا أعلم. فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم كلّ ما تسألونا عنه، ولو علمنا ما كتمناكم ولا حَلّ لنا أن نكتمكم وعن يحيى بن سعيد قال سمعت القاسم يقول: ما نعلم كلّ ما نُسأل عنه ولأن يعيش الرجلُ جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦٥/١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٦٦/١٢.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٣٠٥،٢٦٣/٢ ومواضع أخرى وأخرجه أيضاً أبو داود في سننه رقم ٣٦٥٨ في العلم باب كراهية منع العلم (٦٧/٤) وصححه الألباني (صحيح أبي داود ٦٩٦/٢ رقم ٣١٠٦).

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣٢٢/١٣.

(٥) صفة الصفوة: ٨٩/٢.

□ ١٠ـ السلف والقرآن الكريم □

● عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر» قال: قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في عشرين ليلة» قال: قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»[١].

قال الذهبي تعليقاً على الحديث: وصحَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ نازله إلى ثلاثِ ليالٍ، ونهاهُ أن يقرأهُ في أقلَّ من ثلاثٍ[٢] وهذا كان في الذي نزَل من القرآن، ثم بعدَ هذا القول نزلَ ما بقي من القرآن. فأقلُّ مراتب النهي أن تُكرَهَ تلاوةُ القرآن كلِّه في أقلَّ من ثلاث، فما فقه ولا تَدَبَّر من تلا في أقلَّ من ذلك. ولو تَلا ورتَّل في أسبوع، ولازم ذلك، لكان عملاً فاضلاً، فالدِّينُ يُسْرٌ، فوالله إنَّ ترتيلَ سُبع القرآن في تَهَجُّد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحيَّة المسجد، مع الأذكارِ المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودُبُرَ المكتوبة والسحر، مع النَّظَر في العلم النافع والاشتغالِ به مُخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشادِ الجاهلِ وتفهيمِهِ، وزجرِ الفاسق، ونحوِ ذلك، مع أداءِ الفرائض في جماعةٍ بخشوعٍ وطمأنينة وانكسارٍ وإيمان، مع أداء الواجبِ، واجتنابِ الكبائر، وكثرةِ الدُّعاءِ والاستغفار، والصدقةِ وصلةِ الرحم، والتواضع، والإخلاصِ في جميع ذلك، لَشُغْلٌ عظيمٌ جسيم، ولَمَقامُ أصحابِ اليمين وأولياءِ الله المتقين، فإنَّ سائر ذلك مطلوب. فمتى تشاغَلَ العابدُ بختمةٍ في كُلِّ يوم، فقد خالف الحنيفيَّةَ السمحةَ، ولم ينهضْ بأكثر ما ذكرناه ولا تدبَّر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب في كم يقرأ القرآن ح ٥٠٥٤ (فتح ٨/٧١٣) ومسلم في كتاب الصيام (٣٥) باب النهي عن صوم الدهر ... ح ١٨٤ (٢/٨١٤).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه باب في كم يقرأ القرآن ح ١٣٩٠، ١٣٩١ (٢/١١٣) وصححهما الألباني (صحيح أبي داود ١/٢٦١ ح ١٢٣٩، ١٢٤٠).

ما يتلوه. هذا السيدُ العابدُ الصاحبُ كان يقول لما شاخ: ليتني قبلتُ رُخصة رسول الله ﷺ[1].

● وعن المسيب بن رافع، عن عبدالله بن مسعود قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس فرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلُطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حليماً حكيماً مِكِّيتاً[2] ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيا ولا غافلاً ولا سخّابا[3] ولا صيَّاحاً ولا حديداً[4]»[5].

● وحدث شُعبة وهشام: عن قتادة، عن يونس بن جُبَير، قال: شيعنا جُنْدُباً، فقلتُ له: أوصِنا، قال: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نورٌ بالليلِ المظلم، وهُدى بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عَرَضَ بلاءٌ، فقدِّم مالَكَ دون دينك، فإن تجاوز البلاء، فقدِّم مالك ونفسك دون دينك، فإن المخروبَ من خرب دينُه، والمسلوبَ من سلب دينُه. واعلم أنه لا فاقةَ بعد الجنة، ولا غنى بعد النار[6].

● وعن حمَّاد بن نجيح: عن أبي عِمران الجَوْني، عن جُندب، قال: كنَّا غِلماناً حزاورةً[7] مع رسول الله ﷺ، فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتَعلَّمَ القُرآن، ثم تعلَّمْنا القرآن، فازددْنا به إيماناً[8].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري في فضائل القرآن ح ٥٠٥٢ (فتح ٨/٧١٣). وكلام الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٣/٨٤.
(٢) بكسر السين وتشديد الكاف: كثير السكوت.
(٣) سخاباً وصخاباً بمعنى واحد وهو الصيَّاح شديد الصوت.
(٤) حديداً: فيه جِدَّة وهي الغضب.
(٥) صفة الصفوة: ١/٤١٣.
(٦) سير أعلام النبلاء: ٣/١٧٤.
(٧) حزاورة جمع حزوَّر وهو الغلام إذا قارب البلوغ.
(٨) سير أعلام النبلاء: ٣/١٧٥.

• وعن حمّاد بن زَيْد: عن عطاء بن السائب، أن أبا عبدالرحمن قال: أخذْنا القرآن عن قَوْمٍ أخْبرونا أنّهُمْ كانوا إذا تعلّموا عَشْرَ آياتٍ لمْ يجاوزوهُنّ إلى العَشْر الأُخر حتى يعْلمُوا ما فيهنّ، فكُنّا نتعلّمُ القرآن والعَمَل به، وسيرِثُ القرآنَ بعدَنا قوْمٌ يشربونَهُ شُرْبَ الماء لا يجاوزُ تراقِيَهُم[1].

• وعن إسحاق بن إبراهيم قال: كانت قراءة الفضيل حزينة شهيّة بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مرّ بآية فيها ذكْر الجنة يردّدها[2].

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٦٩/٤.

(٢) صفة الصفوة: ٢٣٨/٢.

□ ١١ـ السلف وفقه الاجتهاد في العبادة □

● عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، قال: رأيت أبا ذرٍّ يَمِيدُ على راحلته، وهو مُستقبلٌ مَطلع الشمس، فظننته نائماً، فدنوتُ وقلتُ: أنائمٌ أنت يا أبا ذر؟ قال: لا، بل كنتُ أصلي[1].

● وقيل للأحنف: إنك كبير، والصَّوْمُ يُضعِفُك. قال: إني أعِدُّه لسفرٍ طويل. وقيل: كانتْ عامةُ صلاة الأحنف بالليل، وكان يضعُ أصبعَهُ على المصابيح، ثم يقول: حَسِّ[2] ويقول: ما حَمَلك يا أحنفُ على أنْ صنعت كذا يومَ كذا[3].

● وعن سعيد الجُريري، عن أبي العلاء، عن رجل قال: أتيتُ تميماً الدَّاريَّ، فحدثنا. فقلتُ: كم جزؤُكَ؟ قال: لعلكَ من الذين يقرأ أحدهم القُرآن، ثم يُصبحُ، فيقول: قد قرأتُ القرآن في هذه الليلة [فوالذي نفسي بيده] لأن أصَلِّي ثلاثَ ركعاتٍ نافلة أحبُّ إليَّ من أنْ أقرأ القرآن في ليلة، ثم أصبح، فأخبِرَ به. فلما أغضبني، قلتُ: والله إنَّكم مَعاشرَ صحابةِ رسولِ الله ﷺ مَن بقي منكم لجديرٌ أن تَسكُتوا، فلا تعلموا وأن تعنِّفوا من سألكم.

فلما رآني قد غضبتُ، لان، وقال: ألا أحدِّثُكَ يا ابنَ أخي؟: أرأيتَ إنْ كنتُ أنا مؤمناً قوياً، وأنت مؤمنٌ ضعيفٌ؛ فتحملُ قوتي على ضعفِك، فلا تستطيعُ، فتنْبَتُّ. أو رأيت إنْ كنت أنت مؤمناً قوياً، وأنا مؤمن ضعيف [حين أحملُ قوتك على ضعفي، فلا أستطيعُ، فأنبتُّ]. ولكن خُذْ من نفسِك لدينك، ومن دينك لنفسك، حتى يستقيم لك الأمرُ على عبادة تُطيقُها[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧٨/٢.

(٢) كلمة تقال عند الألم.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٩١/٤،٩٢.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٤٤٦/٢.

● ومن تمام كلام الذهبي في تعليقه على حديث عبدالله بن عمرو بن العاص السابق في اجتهاده ـ رضي الله عنه ـ في تلاوة القرآن الكريم قوله: وكذلك قال عليه السلام في الصوم وما زالَ يناقِصُه حتى قال له: «صُمْ يوماً وأفْطِرْ يوماً، صَوْمَ أخي داود عليه السلام»[1]. وثبت أنه قال: «أفضَلُ الصِّيام صِيَامُ داود»[2]. ونهى عليه السلام عن صيام الدهر[3]. وأمَرَ عليه السلام بنوم قسطٍ من الليل، وقال: «لكني أقُومُ وأنام، وأصُومُ وأفْطِرُ، وأتزوَّجُ النّساء، وآكُلُ اللحم، فمن رغِبَ عن سُنّتي فليس مني»[4].

وكلُّ من لم يَزُمّ نفْسَه في تعبُّده وأوراده بالسُّنّة النبوية، يندمُ ويترهَّبُ ويسوءُ مزاجُه، ويفوتُه خيرٌ كثيرٌ من متابعة سُنّة نبيِّه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ مُعلّماً للأمة أفضل الأعمال، وآمراً بهجر التّبتُّل والرهبانية التي لم يُبْعث بها، فنهىٰ عن سرد الصوم، ونهىٰ عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهىٰ عن العُزبة للمستطيع، ونهىٰ عن ترك اللحم إلىٰ غير ذلك من الأوامر والنّواهي. فالعابدُ بلا معرفةٍ لكثير من ذلك معذورٌ مأجور، والعابدُ العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضولٌ مغرورٌ، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومُها وإن قلّ.

---

(١) هو قطعة من حديث متفق عليه. أخرجه البخاري بنحوه في الصوم باب صوم الدهر ح ١٩٧٦ (فتح ٤/٢٥٩) وأخرجه مسلم بنحوه أيضاً في كتاب الصيام ح ١١٥٩ (١٨١،١٨٩،١٩٢) (صحيح مسلم ٢/٨١٢).

(٢) نفس الحديث السابق.

(٣) في رواية للحديث السابق في صحيح مسلم قال ﷺ: «لا صوم فوق صوم داود، شطر الدهر صيام يوم وإفطار يوم» كتاب الصيام (١٩١) (صحيح مسلم ٢/٨١٧)، وفي رواية أخرى قال ﷺ: «لا صام من صام الأبد» رقم (١٨٦)، (١٨٧) (صحيح مسلم ٢/٨١٤،٨١٥).

(٤) أخرجه البخاري بنحوه في النكاح باب الترغيب في النكاح (ح ٥٠٦٣) (فتح ٩/٥) وأخرجه مسلم بنحوه في النكاح ح (١٤٠١) (صحيح مسلم ٢/١٠٢٠).

ألهمنا الله وإياكم حُسْنَ المتابعة، وجنّبنا الهوى والمخالفة[1].

● وحدّث وكيع: عن الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، والمغيرة بن شبل، عن طارق ابن شهاب، عن سلمان[2] قال: إذا كان الليل، كان الناسُ منه على ثلاث منازل: فمنهم مَنْ له ولا عليه، ومنهم مَنْ عليه ولا له، ومنهم مَنْ لا عليه ولا له! فقلتُ: وكيف ذاك؟ قال: أما مَنْ له ولا عليه، فرجل اغتنم غفلةَ الناس وظلمةَ الليل، فتوضأ وصلّى، فذاك له ولا عليه، ورجل اغتنم غفلة الناس، وظلمةَ الليل، فمشى في معاصي الله، فذاك عليه ولا له، ورجل نام حتى أصبح، فذاك لا له ولا عليه.

قال طارق: فقلت: لأصحبنَّ هذا. فَضُرب على الناس بعثٌ، فخرج فيهم، فصحبته وكنت لا أفضله في عمل، إن عجنت خبز وإن خبزت طبخ، فنزلنا منزلاً فبتنا فيه، وكانت لطارق ساعة من الليل يقومها، فكنت أتيقظ لها فأجده نائماً، فأقول: صاحب رسول الله خيرٌ مني نائم، فأنام ثم أقوم فأجده نائماً فأنام، إلا أنه كان إذا تعارّ من الليل قال وهو مضطجع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. حتى إذا كان قبيل الصبح قام فتوضأ ثم ركع أربع ركعات. فلما صلينا الفجر قلت: يا أبا عبدالله! كانت لي ساعة من الليل أقومها وكنت أتيقظ لها فأجدك نائماً، قال: يا ابن أخي! فإيش كنت تسمعني أقول؟ فأخبرته، فقال: يا ابن أخي تلك الصلاة، إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت المقتلة، يا ابن أخي عليك بالقصد فإنه أبلغ[3].

● وعن أسد بن وداعة، عن شداد بن أوس أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبتْ مني النوم. فيقوم فيصلي حتى يصبح[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/٨٤،٨٥.

(٢) هو سلمان الفارسي الصحابي الجليل.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/٥٤٩،٥٥٠.

(٤) صفة الصفوة: ١/٧٠٩.

• وعنه قال: كان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبّة على مِقلى، فيقول: اللهم إن النار قد أسهرتني ثم يقوم إلى الصلاة[1].

• وروى الذهبي بسنده إلى البغوي: حدثني ابن زنجويه، سمعت إبراهيم بن مهدي سمعت أبا الأحوص قال: قالت بنت لجار منصور بن المعتمر: ياأبتِ أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة؟ قال: يا بنية ذاك منصورٌ، كان يقوم الليل[2].

• وقال نُعيم بن حمّاد: كان ابنُ المبارك إذا قرأ كتاب الرِّقاق، يصيرُ كأنه ثور منحور، أو بقرة منحورة، من البكاء، لا يجترىء أحدٌ منا أن يسأله عن شيء إلا دفعه[3].

• وقال إبراهيمُ بنُ محمد بن سفيان: سمعتُ عاصمَ بنَ عصام البيهقي يقول: بتُّ ليلةً عند أحمد بنِ حنبل، فجاء بماءٍ فوضعَهُ، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله، فقال: سبحانَ الله! رجلٌ يطلبُ العلم لا يكون له وِرد بالليل[4].

• وقال إسحاق بن إبراهيم وسمعت الفضيل يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبّل كبّلتك خطيئتك[5].

• وقال الذهبي في ترجمته لأحمد بن أبي الحواري الصوفي تعليقاً على بعض كلامه: قلتُ: الطريقةُ المُثلى هي المحمَّديَّة، وهو الأخْذُ من الطيبات، وتناوُلُ الشهواتِ المباحةِ من غير إسراف، كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ، كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ، واعْمَلوا صالِحاً﴾[6]. وقد قال النبيُّ ﷺ: «لكنّي أصُومُ وأفْطِرُ،

---

(١) صفة الصفوة: ٧٠٩/١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٠٣/٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣٩٤/٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٩٨/١١.

(٥) صفة الصفوة: ٢٣٨/٢.

(٦) سورة المؤمنون: آية ٥١.

وأقومُ وأنامُ، وآتي النساء، وآكلُ اللحْمَ. فمنْ رَغِبَ عنْ سُنّتِي فليْسَ مِنّي»[1]، فلم يشْرَعْ لنا الرّهْبانيّة، ولا التّمزُّقَ ولا الوصالَ بل ولا صومَ الدهرِ، ودينُ الإسلام يُسْرٌ وحَنيفيّةٌ سَمْحَة، فلْيأكلِ المسلمُ من الطّيّبِ إذا أمكنه، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سعةٍ مِنْ سعتِه﴾[2] وقد كان النساء أحبَّ شيءٍ إلى نبيِّنا ﷺ[3]، وكذلك اللحمُ والحلواء والعسلُ والشرابُ الحلو البارد والمِسْكُ، وهو أفضل الخلق وأحبُّهم إلى الله تعالى. ثم العابدُ العَرِيُّ من العلم، متى زهد وتبتّل وجاعَ، وخلا بنفسه، وترك اللحمَ والثمار، واقتصر على الدُّقّة والكِسْرة، صَفَت حواسُّه ولطُفت، ولازمته خطراتُ النّفْس، وسمع خطاباً يتولّدُ من الجوعِ والسهرِ، لا وجودَ لذلك الخطابِ ـ واللهِ ـ في الخارج، وولَج الشيطانُ في باطنه وخرَج، فيعتقِدُ أنه قد وصلَ، وخُوطب وارتقى، فيتمكّن منه الشيطانُ، ويُوسوسُ له، فينظُرُ إلى المؤمنين بعين الازدراء، ويتذكّرُ ذنوبهم، وينظُرُ إلى نفسه بعين الكمال، وربّما آل به الأمرُ إلى أن يعتقد أنه وليٌّ، صاحبُ كراماتٍ وتَمكُّنٍ، وربّما حصلَ له شكٌّ وتزلزلَ إيمانُه، فالخلوةُ والجوعُ أبوجادِ[4] التَّرهُّبِ، وليس ذلك من شريعتنا في شيءٍ. بلى، السلوكُ، وملازمةُ الذكر، وتَرْكُ مخالطةِ العامّةِ، والبكاءُ على الخطيئة، والتلاوةُ بالترتيلِ والتدبُّر، ومَقْتُ النفسِ وذمُّها في ذاتِ الله، والإكثارُ من الصومِ المشروع، ودوامُ التهجُّد، والتواضعُ للمسلمين، وصلةُ الرحم، والسماحةُ وكثْرةُ البِشْر، والإنفاقُ مع الخَصاصةِ، وقول الحقِّ المُرِّ برِفْقٍ وتُؤْدةٍ، والأمر بالعُرف، والأخذُ بالعفو، والإعراضُ عن الجاهلين، والرباطُ بالثَّغرِ، وجهادُ العدو، وحجُّ البيتِ، وتناوُل الطيباتِ في

---

(١) سبق تخريجه في صفحة ٦٠.

(٢) سورة الطلاق: آية ٧.

(٣) أخرج أحمد (٢/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائي (٧/٦١) والحاكم (٢/١٦٠) وصححه ووافقه الذهبي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة».

(٤) قوله: (فالخلوة والجوع أبوجاد الترهب) أي: أول وبداية طريق الترهب؛ أخذاً من قولهم: (عد أبي جاد)، وأبجديات الشيء أولياته.

الأخابين، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَرِ. فهذه شمائلُ الأولياء وصفاتُ المحمديين، أماتَنا الله على محبَّتِهم[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢/٨٩-٩١.

● وعن ابن أبي أويس، عن أبيه، عن الوليد بن داود بن محمد بن عُبادة ابن الصامت عن ابن عمه عبادة بن الوليد، قال: كان عُبادة بن الصامت مع معاوية، فأذَّنَ يوماً، فقام خطيبٌ يمدح معاوية، ويُثني عليه، فقام عُبَادةُ بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاويةُ، فقال له عُبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعْنا رسولَ الله ﷺ بالعقبة، على السَّمعِ والطَّاعة في مَنْشطِنا ومَكْرَهِنا ومكْسَلِنا، وأثرَةٍ علَيْنا، وألّا نُنازِعَ الأمرَ أهله، وأن نقومَ بالحقِّ حيثُ كنا، لا نخافُ في الله لومةَ لائم. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا رَأيْتم المَدَّاحِينَ، فاحثُوا في أفواهِهِم التُّرَابَ»[1].

● وعن يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه عن عبدالله بن مَعْقِل، قال: نزل ابنُ أمِّ مكتوم على يهودية بالمدينة كانت ترْفُقُه، وتؤْذيه في النبي ﷺ، فتناولها فضربَها، فقتلها، فرفع ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال هو: أما والله إن كانت لترْفُقُني، ولكن آذتني في الله ورسولِه. فقال النبيّ ﷺ: «أبْعَدَها الله، قَدْ أبْطَلْتُ دَمَهَا»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٧. وحديث البيعة عن عبادة بن الصامت أخرجه البخاري بنحوه في كتاب الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس ح ٧١٩٩، ٧٢٠٠. (فتح الباري ١٣/٢٠٤) وحديث «إذا رأيتم المداحين فاحثوا ...». أخرجه مسلم بنحوه في الزهد والرقائق باب النهي عن المدح ح ٣٠٠٢ (٦٩) (صحيح مسلم ٤/٢٢٩٧).

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/٣٦٣. والحديث رجاله ثقات وأخرجه ابن سعد: في الطبقات (٤/١٥٨) ويشهد له ما أخرجه أبو داود عن علي ـ رضي الله عنه ـ أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله ﷺ دمها. ح ٤٣٦٢ في الحدود (٤/٥٢٩) وكذا حديث رقم ٤٣٦١ عنده. وقد صحح الألباني الثاني في صحيح أبي داود رقم ٣٦٦٥ (٣/٨٢٤) واختلف قوله في الأول فصحح إسناده في إرواء الغليل رقم ١٢٥١ (٥/٩١) وضعفه في ضعيف أبي داود رقم ٩٣٧.

• وعن الأوزاعي: حدثني أبو كثير، عن أبيه، قال: أتيت أبا ذرّ وهو جالس عند الجمرة الوُسطى، وقد اجتمع الناسُ عليه يَستفتونه، فأتاه رَجلٌ، فوقَف عليه، فقال: ألم يَنهكَ أميرُ المؤمنين عن الفُتيا؟ فرفَع رأسه، ثم قال: أرقيبٌ أنتَ عليَّ! لو وضعْتُم الصَّمْصَامَة[1] على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننتُ أني أُنفِذُ كلمةً سمعتُها من رسولِ الله ﷺ قبل أن تُجيزوا عَليَّ لأنفذتها[2].

• وقال الذهبي في ترجمة الإمام قاضي مدينةِ بَرْقَة، محمدُ بنُ الحُبُلي: أتاه أميرُ بَرْقَة، فقال: غداً العيد، قال: حَتَّى نرى الهلال، ولا أفطِّر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: بهذا جاءَ كتابُ المَنْصور ـ وكان هذا من رأي العُبَيْدِيَّة يفطِّرون بالحِساب، ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُر هِلال، فأصبح الأميرُ بالطُّبول والبُنُود وأهبَةِ العيد. فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلِّي، فأمر الأميرُ رجلاً خَطَبَ. وكَتَبَ بما جرى إلى المنصور، فطَلَبَ القاضي إليه، فأُحضِر، فقال له: تَنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتَنَعَ، فأمر، فَعُلِّق في الشمس إلى أنْ مات، وكان يستغيث العطشَ، فلم يُسقَ. ثم صَلَبُوهُ على خشَبةٍ. فلعنة الله على الظَّالمين[3].

• وعن الحسن أن زياداً بعث الحكم بن عمرو على خراسان، ففتح الله عز وجل عليهم وأصابوا أموالاً عظيمة فكتب إليه زياد: أما بعد فإن أمير المؤمنين كتب إليَّ أن أصفي الصفراءَ والبيضاء، ولا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة.

فكتب إليه: سلام عليك. أما بعد إنك كتبت تذكر كتاب أمير المؤمنين، وإني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات

---

(١) الصمصامة: السيف الذي لا ينثني.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٦٤/٢.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٣٧٤/١٥.

والأرض رَتْقاً على عبدٍ فاتقى الله عز وجل لجعل الله له منهما فَرجاً ومخرجاً والسلام عليك[1].

● وعن أبي المنذر إسماعيل بن عمر قال: سمعت أبا عبدالرحمن العمري يقول: إن مِن غفلتك إعراضك عن الله بأن ترى ما يُسخطه فتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى خوفاً ممن لا يملك ضَرًّا ولا نفعاً.

وقال سمعته يقول: من ترك الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكرِ من مخافة المخلوقين نُزِعت منه هيبةُ الله تعالى فلو أمر بعض ولده أو بعض مواليه لاستخفَّ به[2].

● وعن سُليمان بن عبدالرحمن بن عيسى: حدَّثنا أبو خُلَيْد عُتْبَة بن حمَّاد القارىء، حدَّثنا الأوْزاعي، قال: بعثَ عبدالله بنُ عليٍّ إليَّ، فاشتدَّ ذلك عليَّ، وقدِمتُ، فدخلتُ، والناس سِماطانِ[3]، فقال: ما تقولُ في مخرَجِنا وما نحنُ فيه؟ قلتُ: أصلحَ الله الأمير! قد كان بيني وبينَ داود بن عليٍّ مودَّة قال: لتخبِرَنّي. فتفكرتُ، ثم قلتُ: لأصْدُقَنَّه، واستبسلتُ للموتِ، ثُم رويتُ لهُ عن يحيى بن سعيد حديث «الأعمال»[4]، وبيده قضيبٌ ينكُتُ به، ثم قال: يا عبدالرَّحمن: ما تقولُ في قتلِ أهل هذا البيتِ؟ قلتُ: حدَّثني محمد بن مروان، عن مُطَرِّف بن الشِّخِّير، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، عن النبي ﷺ قالَ: «لا يَحِلُ قتْلُ المُسْلِمِ إلا في ثَلاثٍ ...» وساق الحديث[5]. فقالَ: أخبِرْني عن

---

(١) صفة الصفوة: ٦٧٢/١.

(٢) صفة الصفوة: ١٨١/٢.

(٣) سماطان: صفان.

(٤) يقصد حديث «إنما الأعمال بالنيات ...» أخرجه البخاري في بدء الوحي ح ١ (فتح الباري ١/١٥) ومسلم ح ١٩٠٧ في كتاب الإمارة (صحيح مسلم ٣/١٥١٥).

(٥) تمامه: «الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» أخرجه =

الخلافةِ، وصية لنا من رسولِ الله ﷺ؟ فقلتُ: لو كانتْ وصيَّةً من رسول الله ﷺ ما تركَ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أحداً يتقدَّمه. قالَ: فما تقولُ في أموالِ بني أميَّةَ؟ قلتُ: إن كانتْ لهم حلالاً، فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حراماً، فهي عليك أحْرَمُ. فَأَمَرَ بي، فأخرجتُ.

قال الذهبي: قد كان عبدُالله بن عليٍّ ملكاً جبَّاراً، سفَّاكاً للدماء، صعبَ المراسِ، ومعَ هذا فالإمامُ الأوْزاعي يَصْدَعُه بمُرِّ الحق كما ترى، لا كخَلْقٍ مِن عُلماء السُّوء، الذين يُحَسِّنونَ للأُمَراءِ ما يقتحِمونَ به من الظُّلم والعَسْف، ويقْلِبُون لهم الباطل حقاً ـ قاتلهم الله ـ أو يسكتون مع القُدْرةِ على بيان الحق[1].

● وقال ابن الجوزي: دخل عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز على عمر فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأَخْلني، وعنده مسلمة بن عبدالملك، فقال عمر: أسِرٌّ دون عمِّك؟ قال: نعم. [فقام][2] مسلمة وخرج وجلس بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال: رأيتَ بدعةً [لم][3] تُمِتْها أو سنَّةً فلمْ تُحيها؟ فقال له: يابنى أشيء حمَّلك الرغبة إليّ أم رأي رأيته من قِبل نفسك؟ قال: لا والله ولكن رأيٌ رأيتُه من قِبل نفسي، عرفت أنك مسئول، فما أنت قائل؟ فقال له أبوه: رحمك الله وجزاك من ولدٍ خيراً فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يابني إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عُقْدةً عقدةً وعُروةً عروةً ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم

- البخاري بنحوه في الديات باب قوله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس﴾ ح ٦٨٧٨ (فتح الباري ١٢/٢٠٩)، وأخرجه مسلم أيضاً في القسامة ح ١٦٧٦ (صحيح مسلم ٣/١٣٠٢).

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/١٢٤،١٢٥.

(٢) في المطبوعة: (فقال). والصواب ما أثبتناه.

(٣) زيادة غير موجودة في المطبوعة يقتضيها النص.

آمن أن يفتقوا على فتقاً تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يُهرَاق في سببي مِحجَمَةٌ[1] من دم، أوَمَا ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يُميت فيه بدعة ويُحيي فيه سنّة؟ حتى يحكم الله بيننا بالحق وهو خير الحاكمين[2].

● وعن سعيد بن سليمان قال: كنت بمكة في زقاق الشطوى وإلى جنبي عبد الله بن عبد العزيز العمرى وقد حج هارون الرشيد فقال له إنسان: يا أبا عبدالرحمن هو ذا أمير المؤمنين يسعى قد أُخلى له المسعى. قال العمرى للرجل: لا جزاك الله عنى خيراً، كلّفتنى أمراً كنتُ عنه غنياً. ثم تعلّق نعليه وقام. فتبعتُه وأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا فصاح به: يا هارون! فلما نظر إليه قال: لبيّك يا عمّ. قال: ارْقَ الصّفا. فلما رَقِيَه قال: ارْم بطرفك إلى البيت. قال: قد فعلت. قال: كم هُم؟ قال: ومن يُحصيهم؟ قال: فكم من الناس مثلهم؟ قال: خلْق لا يُحصيهم إلا الله. قال: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه وأنت وحدك تُسأل عنهم كلّهم فانظر كيف تكون؟ قال: فبكى هارون وجلس وجعلوا يُعطونه منديلاً منديلاً للدموع.

قال العُمرى: وأخرى أقولها. قال: قل ياعم. قال: والله إن الرجل ليسرف في ماله فيستحقّ الحجْر عليه. فكيف بمن يسرف في مال المسلمين؟ ثم مضى وهارون يبكى[3].

● وقال الذهبي في ترجمته للإمام على بن أبي الطيب: إنه حمل إلى السلطان محمود بن سبكتكين ليسمع وعظه فلما دخل جلس بلا إذن، وأخذ في رواية حديثٍ بلا أمر، فتنمّر له السلطانُ، وأمر غلاماً، فلكمهُ لكْمةً أطْرشَتْهُ، فعرَّفه بعضُ الحاضرين منزلته في الدين والعلم. فاعتذر إليه، وأمر له بمال، فامتنع، فقال: يا شيخ: إن لِلْمُلْكِ صَولةً، وهو مُحتاجٌ إلى السياسةِ، ورأيتُ أنك تعدّيتَ

(١) المحجمة: القارورة التي يجمع فيها دم الحجامة عند المصّ. وقوله (من أن يهراق في سببي محجمة من دم) أي: ملء المحجمة دماً وهو قدر يسير.

(٢) صفة الصفوة: ١٢٨/٢. (٣) صفة الصفوة: ١٨٢/٢.

الواجبَ، فاجعلني في حِلّ. قال: الله بيننا بالمِرصاد، وإنما أحضرتني للوعظ، وسماعِ أحاديث الرسول ﷺ، وللخشوع لا لإقامة قوانين الرئاسة. فَخَجِلَ المَلِكُ، واعتنقه. ذكره ياقوت في «تاريخ الأدباء»، وقال: تُوفي في شوال سنة ثمانٍ وخمسين وأربع مئة بسانْزُوار.

[قال الذهبي]: رُتبةُ محمودٍ رفيعة في الجهاد وفتحِ الهند وأشياء مليحة، وله هَنَاتٌ، هذه منها، وقد نَدِم واعتذر، فنعوذُ بالله من كُلِّ مُتكبرٍ جبَّار. وقد رأينا الجَبَّارين المُتمرِّدين الذين أماتوا الجهاد، وطغوا في البلاد، فَواحسرةً على العباد[1].

● وقال عبدُالرحمن رُسْتَه: سألتُ: ابنَ مَهْدِيٍّ عن الرَّجُلِ يَبني بأهله، أيترُكُ الجماعةَ أيّاماً؟ قال: لا، ولا صلاةً واحدة. وحضرتُه صبيحةَ بُني على ابنته، فخرج فأذَّنَ، ثم مشى إلى بابِهما، فقال للجارية: قولي لهما: يخرُجَان إلى الصَّلاة، فخرج النِّساءُ والجواري، فقلْنَ: سبحان الله! أيُّ شيء هذا؟ فقال: لا أبرَحُ حتى يخرُجا إلى الصَّلاة، فخرجا بعدما صلَّى، فبعثَ بهما إلى مَسْجِدٍ خارج من الدَّرْب[2].

● وعن مقاتل بن صالح الخراساني قال: دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس في البيت إلا حصير، وهو جالس عليه، ومصحفٌ يَقرأ فيه، وجراب فيه عِلْمه، ومطهرة يتوضأ منها، فبينما أنا عنده جالس إذا دَقَّ دَاقٌّ الباب. فقال: ياصبية اخرجي فانظري مَن هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان. قال: قولي له يدخل وحده. فدخل فناوله كتاباً فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد ابن سليمان إلى حماد بن سلمة. أما بعد فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام».

قال: ياصبية هلمِّي الدواة. ثم قال لي: اقلب الكتاب واكتب: «أما بعد

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٧٣، ١٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٩/٢٠٤.

وأنت فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً فإن كانت وقعت مسألة فأتنا واسألنا عما بدا لك وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك ولا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك، ولا أنصح نفسي والسلام».

فبينا أنا عنده دقّ داقٌ الباب فقال: ياصبية اخرجي فانظري مَن هذا؟ فقالت: محمد بن سليمان. قال قُولي له ليدخل وحده. فدخل فسلّم ثم جلس بين يديه فقال: مالى إذا نظرتُ إليك امتلأت رعباً فقال حماد: سمعت ثابتاً البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله عز وجل هابه كلّ شيء، وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز هابَ مِن كل شيء»[1] فقال: أربعون ألف درهم تأخذها تستعين بها على ما أنت عليه؟ قال: ارْدُدها على من ظلمته بها. قال: والله ما أعطيتك إلا ما ورثْتُه. قال: لا حاجة لي فيها ازْوها عنى[2] زَوى الله عنك أوزارَك. قال: فتقسمها. قال: فلعلى إن عدَلت في قسْمتها أن يقول بعض من لم يُرزَق منها. لم يَعدِل. ازْوِها عنى زَوى الله عنك أوزارك[3].

* * *

---

(١) كنز العمال: ٦٣٠/١٦ حديث ٤٦١٣١ وعزاه إلى ابن عساكر وابن النجار. قال الزبيدي: قال المنذري في الباب عن علي وغيره وبعضها يقوى بعضاً. (انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ١٠٨٧/٢).

(٢) ازوها: ابعدها واصرفها.

(٣) صفة الصفوة: ٣٦١/٣.

□ ١٣ـ السلف والجهاد في سبيل الله □

● عن حماد بنِ سلمة: حدثنا عليُ بنُ زيد، عن ابن المسيِّب، قال: أقبل صُهَيب مُهاجراً، واتُّبَعه نفرٌ، فنزلَ عن راحلته، ونثَل كِنانَتَهُ، وقال: لقد علمتم أني من أرماكم، وأيمُ الله لا تَصِلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي، ثم أضربُكم بسيفي، فإن شئتُم دللتُكم على مالي، وخلَّيتُم سبيلي؟ قالوا: نفعل. فلما قدم على النبي ﷺ قال: ربح البيعُ أبا يحيى! ونزلتْ: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نفْسَهُ ابْتِغَاءَ مرْضَاتِ الله﴾[١].

● وقال الواقدي: حدثنا عبد الله بن نافع، عن أبيه عن ابن عمر، قال: رأيتُ عماراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: يا معشرَ المسلمين، أمِن الجنة تَفِرُّون؟ أنا عمارُ بن ياسر، هلُمُّوا إليَّ! وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت، فهي تَذَبْذَبُ وهو يُقاتِلُ أشدَّ القتال[٢].

● وقال ابن الجوزي في ترجمة سعد بن خيثمة: يكنى أبا عبدالله، أحدِ نقباء الأنصار الاثنى عشر. شهد العقبة الأخيرة مع السبعين. ولما ندب رسول الله ﷺ الناسَ إلى غزوة بدر قال له أبوه خيثمة: إنه لابد لأحدنا أن يقيم، فآثرني بالخروج وأقم مع نسائك. فأبى سعد وقال: لو كان غير الجنة آثرتك به. إنّي لأرجو الشهادة في وجهي هذا فاستهما فخرج سهم سعد فخرج فقتل ببدر أخبرنا بذلك أبو بكر بن أبي طاهر، قال أخبرنا الجوهري قال: أخبرنا ابن حيوة قال: أخبرنا ابن معروف قال: أخبرنا ابن الفهم قال: أخبرنا محمد بن سعد، رحمه الله ورضي عنه، وحشرنا في زمرته وزمرة أصحابه[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٢٣. والآية هي رقم ٢٠٧ من سورة البقرة. والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣/٣٩٧ وهو في الطبقات لابن سعد: ٣/١٧١، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٨/٤٣، وأبو نعيم في الحلية: ١/١٥١،١٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/٤٢٢. (٣) صفة الصفوة: ١/٤٦٨.

● وعن ثابت البناني: عن ابن أبي ليلى، أن ابنَ أمّ مكتوم قال: أي ربِّ! أنزل عذري. فأنزلت ﴿غَيْرُ أولي الضَّرَرِ﴾[1] فكان بعدُ يغزو ويقولُ: ادفعوا إليَّ اللواءَ، فإني أعمى لا أستطيع أن أفِرَّ، وأقيموني بين الصفين[2].

● وقال حمّاد بنُ سَلَمة: أخبرنا ثابت: أنَّ صِلَةَ كانَ في الغزو، ومعه ابنُه، فقالَ: أيْ بُنيّ! تقدّمْ، فقاتِلْ حتى أحْتَسِبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتِلَ، ثُم تقدّم صِلَةُ، فقُتِلَ، فاجتمع النساءُ عند امرأتِه مُعاذةَ، فقالت: مرحَباً إنْ كُنْتُنَّ جِئتُنَّ لتُهنِّئنني، وإن كُنتُنَّ جِئتُنَّ لغيرِ ذلك، فارجِعْنَ[3].

● وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه قالت: لما توجه النبيُّ ﷺ من مكةَ حمل أبو بكر معه جميع ماله ـ خمسة آلاف، أو ستة آلاف ـ فأتاني جدِّي أبو قُحافة وقد عمِي، فقال: إن هذا قد فجعكم بمالِهِ ونفسه. فقلتُ: كلا، قد ترَكَ لنا خيراً كثيراً. فعمدتُ إلى أحجارٍ، فجعَلْتُهنّ في كوّة البيت، وغطيتُ عليها بثوب، ثم أخذتُ بيده، ووضعتُها على الثوب، فقلتُ: هذا تركه لنا. فقال: أمَا إذْ ترك لكم هذا، فنعم[4].

● وروى عاصم بن بهدلة: عن أبي وائل أظن قال: لما حضرت خالداً الوفاةُ، قال: لقد طلبتُ القتل مظانَّه فلم يُقَدَّر لي إلا أن أموتَ على فراشي. وما مِن عملي شيءٌ أرجى عندي بعد التوحيد مِن ليلة بتُّها وأنا متترس، والسماء تهلّني ننتظر الصبح حتى نُغيرَ على الكفار. ثم قال: إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدة في سبيل الله. فلما تُوفي، خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يَسْفَحْنَ على خالد مِن دُموعهن ما لم يكن نَقْعاً أو لَقْلَقَةً[5].

---

(١) سورة النساء: آية ٩٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/٣٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/٤٩٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/٢٩٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١/٣٨١. واللقلقة: الصوت الشديد المضطرب. والنقع: رفع الصوت وشق الجيب.

● وعن ابن عُيينة: عن ابن أبي خالد، عن مولى لآل خالد بن الوليد أن خالداً قال: ما مِن ليلةٍ يُهدى إليّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ أحبّ إليّ مِن ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سريّةٍ أُصَبِّحُ فيها العَدُوّ[1].

● وعن حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن أمّ سُلَيم اتخذتْ خنجراً يوم حنين، فقال أبو طلحة: يا رسول الله هذه أم سُليم معها خِنجَر؟ فقالت: يا رسولَ الله، إنْ دنا منّي مُشرِكٌ بَقَرْتُ به بطنه[2].

● وعن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: بعثني النبيُّ ﷺ، يوم أُحُد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إنْ رأيته، فأقرِه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟ فطفتُ بين القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة، فأخبرته، فقال: على رسول الله السلام وعليك، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خَلِصَ إلى رسول الله ﷺ، وفيكم شفْر يطرف، قال: وفاضت نفسه، رضي الله عنه[3].

● وعن عبدالله بنِ معاوية الجُمَحي: حدثنا عبدُالعزيز القَسْملي: حدثنا ضِرارُ ابنُ عمرو، عن أبي رافع، قال: وجّه عُمرُ جيشاً إلى الروم، فأسروا عبدَالله بنَ حُذافة فذهبوا به إلى ملِكهم، فقالوا: إنَّ هذا مِنْ أصحابِ مُحمَّد. فقال: هل لك أنْ تَتَنصَّرَ وأعطيَكَ نصفَ مُلكي؟ قال: لو أعطيتَني جميعَ ما تملكُ، وجميعَ ما تَملكُ، وجميعَ مُلك العرب، ما رجعتُ عن دين محمد طرفةَ عينٍ. قال: إذاً أقتلكَ. قال: أنتَ وذاك. فأمر به، فصُلِبَ، وقال للرُّماة: ارمُوهُ قريباً من بدنِهِ، وهو يَعْرِضُ عليه، ويأبى، فأنزله. ودعا بِقِدْر، فصب فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرَيْن مِن المسلمين، فأمر بأحدهما، فأُلقي فيها، وهو يَعْرِضُ عليه النصرانيةَ، وهو يأبى.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/٣٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٠٤.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١/٣١٩.

ثم بكى. فقيل للملك: إنّهُ بكى. فظنَّ أنّه قد جزع، فقال: رُدُّوه. ما أبكاك؟ قال: قلتُ: هي نفسٌ واحدةٌ تُلقى الساعةَ فتَذْهبُ، فكنتُ أشتهي أن يكونَ بعدد شعري أنفسٌ تُلقى في النار في الله. فقال له الطاغيةُ: هل لك أن تُقبِّل رأسي وأخلّي عنك؟ فقال له عبدالله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم. فقبَّل رَأْسَه. وقَدِم بالأسارى على عُمر، فأخبَرَه خبره. فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يُقبل رأس ابنِ حُذافة، وأنا أبدأ. فقبّل رَأْسَه[1].

● وعن حمّاد بنِ سلمة، عن ثابت وعلي بن زيد، عن أنس: أنَّ أبا طلحة قرأ: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾[2] فقال: استنفرنا الله، وأمرنا شيوخنا وشبابنا، جهزوني. فقال بنوه: يرحمُك الله! إنك قد غزوتَ على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، ونحن نغزو عنك الآن. قال: فغزا البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرةً يدفِنونه فيها، إلاّ بعد سبعة أيام، فلم يتغير[3].

● وعن خالد بن عبدالله: عن مُحمد بن عمرو، عن أبيه، عن جَدِّه، قال: قال عمرو ابنُ العاص: خرج جيشٌ من المسلمين أنا أميرهم حتى نزلنا الإسكندرية، فقال عظيمٌ منهم: أخرِجوا إليّ رجلاً أكلِّمه ويُكلِّمني. فقلتُ: لا يخرجُ إليه غيري، فخرجتُ معي ترجماني، ومعه ترجمان، حتى وُضِعَ لنا منبران. فقال: ما أنتم؟ قلتُ: نحنُ العرب، ومن أهل الشوك والقرظ، ونحن أهل بيت الله، كنّا أضيقَ الناسِ أرضاً وشرَّهُ عيشاً، نأكلُ الميتة والدم، ويُغير بعضُنا على بعض، كنا بشرِّ عيشٍ عاش به الناسُ، حتى خرج فينا رجلٌ ليس بأعظمنا يومئذ شرفاً ولا أكثرنا مالاً، قال: أنا رسولُ الله إليكم، يأمرُنا بما لا نعرفُ، وينهانا عما كُنّا عليه، فشَنِفْنا له، وكذَّبْناه، ورددْنا عليه، حتى خرج إليه قومٌ من غيرنا، فقالوا: نحن نُصدِّقُك، ونقاتِلُ من قاتلك، فخرجَ إليهم، وخرجنا إليه، وقاتلناه، فظَهَرَ علينا، وقاتَلَ من يليه من العرب، فظَهَرَ عليهم، فلو تعلم ما ورائي من العرب ما أنتم فيه من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٤٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣٤/٢.

العيش لم يبق أحدٌ إلاّ جاءكم، فضحك، ثم قال: إن رسولكم قد صدق وقد جاءتنا رسلٌ بمثل ذلك، وكنا عليه حتى ظهرت فينا ملوكٌ، فعملوا فينا بأهوائهم، وتركوا أمر الأنبياء، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم، لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، وإذا فعلتم مثل الذي فعلنا، فتركتم أمر نبيكم، لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشدُ منا قوةً[1].

● ومن ترجمة أبي عقيل عبدالرحمن بن ثعلبة ـ وهو بدري شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ روى ابن الجوزي عن جعفر بن عبدالله بن أسلم، قال: لما كان يوم اليمامة واصطف الناس كان أول من جُرح أبو عقيل، رُمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم ووهن له شقّه الأيسر في أول النهار وجُرّ إلى الرحل. فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سُمع معن بن عدي يصيح ياللأنصار! الله الله والكرّة على عدوكم. قال عبدالله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد: ما فيك قتال. قال: قد نوّه المنادي باسمي: قال ابن عمر: فقلت له: إنما يقول: ياللأنصار، ولا يعني الجرحى. قال أبو عقيل: أنا من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبْواً قال ابن عمر: فتحزّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: ياللأنصار! كرّةً كيوم حُنين فاجتمعوا رحمكم الله جميعاً تقدّموا فالمسلمون دريئة دون عدوهم، حتى أقحموا عدوّهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم. قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قُطعت يده المجروحة من المنكب فوقعتْ إلى الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل وقُتل عدو الله مسيلمة. قال ابن عمر فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت: يا أبا عقيل! قال: لبيك ـ بلسان ملتاث[2] ـ لمن الدبرة[3]؟ قلت: أبشر قد قتل عدو الله. فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله. ومات يرحمه الله.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/٧٠، ٧١.

(٢) بلسان ملتاث: ثقيل بطيء في الكلام.

(٣) الدبرة: النصر والغلبة.

قال ابن عمر: فأخبرت عمر، بعد أن قدمت، خبره كله. فقال: رحمه الله، ما زال يسعى للشهادة ويطلبها، وإن كان ـ ما علمت ـ من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم إسلامهم رضي الله عنه[1].

● ومن ترجمة واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: عن محمد بن سعد قال: أتى واثلة رسول الله ﷺ فصلى معه الصبح. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى وانصرف تصفح أصحابه. فلما دنا من واثلة قال: من أنت؟ فأخبره فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت أبايع. فقال رسول الله ﷺ: فيما أحببت وكرهتَ؟ قال: نعم. قال: فيما أطقت؟ قال: نعم. فأسلم وبايعه[2].

وكان رسول الله ﷺ يتجهز يومئذ إلى تبوك فخرج واثلة إلى أهله فلقي أباه الأسقع فلما رأى حاله قال: قد فعلتها؟ قال نعم. قال أبوه: والله لا أكلمك أبداً. فأتى عمه فسلم عليه فقال: قد فعلتها؟ قال نعم. قال: فلامه أيسر من ملامة أبيه وقال: لم يكن ينبغي لك أن تسبقنا بأمر. فسمعت أخت واثلة كلامه فخرجت إليه وسلمت عليه بتحية الإسلام. فقال واثلة: أنى لكِ هذا يا أخيّة؟ قالت: سمعت كلامك وكلام عمك فأسلمت. فقال: جهّزي أخاك جهازَ غازٍ فإن رسول الله ﷺ على جناح سفَر. فجهزته فلحق برسول الله ﷺ قد تحمّل إلى تبوك وبقي غُبْراتٌ[3] من الناس وهم على الشخوص[4] فجعل ينادي بسوق بني قينقاع: من يحملني وله سهمي؟ قال: وكنت رجلاً لا رِحلة[5] بي. قال: فدعاني كعب بن عُجْرة فقال: أنا أحملك عقبةً بالليل وعقبةً بالنهار ويدك أسوة يدي وسهمك لي. قال واثلة: نعم. قال واثلة: جزاه الله خيراً لقد كان يحملني ويزيدني وآكل معه ويرفع لي حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اكيدر بن عبد الملك

---

(١) صفة الصفوة: ١/٤٦٦،٤٦٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/٢٣٢.

(٣) غُبُّرات: الجماعة البالية.

(٤) الشخوص: المرتفعات.

(٥) لارحلة بي: ليس لديه بعير أو ظهر يرتحل عليه.

بدومة الجندل خرج كعب في جيش خالد وخرجت معه فأصبنا فيئاً كثيراً فقسمه خالد بيننا فأصابني ست قلائص[1] فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب ابن عجرة فقلت: اخرج رحمك الله فانظر إلى قلائصك فاقبضها فخرج وهو يبتسم ويقول: بارك الله لك فيها ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً[2].

● وعن عبدالله بن قيس، أبو أميَّة الغفارى قال: كنا في غَزاةٍ لنا فحضر عدوّهم[3] فصيح في الناس فهم يثوبون إلى مصافّهم، إذا رجل أمامى، رأسُ فرسى عند عَجُز فرسه، وهو يُخاطب نفسه ويقول: أيْ نفس ألم أشهد مشهدَ كذا وكذا؟ فقلتِ لي: أهلك وعيالك، فأطعتك ورجعتُ؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلتِ أهلَكَ وعيالَكَ فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنَّكِ اليوم على الله، أخذكِ أو تركك. فقلتُ: لأرمُقنَّه اليوم. فرمقته فحمل الناسُ على عدوّهم فكان في أوائلهم. ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في حُماتهم ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم. ثم حمل العدوّ وانكشف الناس فكان في حُماتهم. قال: فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأيته صريعاً. فعددتُ به وبدابته ستِّين، أو أكثر من ستِّين، طعنةً[4].

● وعن ابن المبارك: عن السَّرِيّ بن يحيى، حدثنا العلاءُ بنُ هِلال، أنَّ رجلاً قال لصلة: يا أبا الصُّهباء! رأيتُ أني أعطيتُ شهدةً، وأعطيت شهدتين، فقال: تستشهدُ وأنا وابني، فلما كان يوم يزيد بن زياد؛ لقِيَتْهم التركُ بسجستان، فانهزموا. وقال صِلَةُ: يا بُنَيّ ارجع إلى أمك. قال: يا أبه؛ تُريدُ الخير لنفسك، وتأمُرني بالرجوع! قال فتَقَدَّمْ، فتقدَّم، فقاتل حتى أصيب فرمى صلة عن جسده ـ وكان راميا ـ حتى تفرقوا عنه فأقبل حتى قام عليه فدعا له ثم قاتل حتى قتل رحمه الله[5].

---

(١) قلائص: جمع قلوص وهي الناقة الشابة.
(٢) صفوة الصفوة: ٦٧٤/١-٦٧٦.
(٣) هكذا في الأصل بلا تسمية للعدو وما أضيف إليه.
(٤) صفة الصفوة: ٤٢١/٤.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٤٩٩/٣.

• وقال الأصمعي: لما صافَ قتيبةُ بن مسلم للترك، وهاله أمرُهم، سأل عن محمد بن واسع. فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يُبصبصُ بأصبعه نحوَ السماء. قال: تلك الأصبعُ أحبُّ إليَّ من مئة ألف سيف شهيرٍ وشاب طرير[1].

• وقال حيوة مرةً لبعض نواب مصر: يا هذا لا تُخلينَّ بلادنا من السلاح، فنحن بين قبطي لا ندري متى ينقض، وبين حبشي لا ندري متى يغشانا، وبين رومي لا ندري متى يَحُل بساحتنا، وبربري لا ندري متى يثور[2].

• وروى محمدُ بنُ عمران، عن حاتِم الأصَمِّ قال: كُنَّا مع شقيقٍ ونحن مُصَافُو العدوِّ الترك، في يومٍ لا أرى إلا رؤوساً تَنْدُر[3] وسيوفاً تَقْطَع، ورماحاً تُقْصَفُ، فقال لي: كيف ترى نفسَك، هي مثل ليلةَ عُرسِك؟ قلتُ: لا والله، قال: لكني أرى نفسي كذلك، ثم نامَ بين الصَّفَّين على دَرَقته[4] حتى غطَّ، فأخذني تُركيٌّ، فأضجعني للذَّبح، فبينما هو يطلبُ السِّكّين من خُفِّه، إذ جاءهُ سَهْمٌ عائِرٌ ذَبَحَه[5].

• وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي: قال أبو ذرٍّ الحافظ: سَجَنَه بنو عُبيد، وصلبُوه على السنّة، سمعتُ الدَّارقُطنيَّ يذكُرُه، ويَبْكي، ويقول: كان يقول، وهو يُسْلَخ: ﴿كانَ ذلك في الكتاب مَسْطُوراً﴾[6].

قال أبو الفَرج بنُ الجَوْزي: أقام جَوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النَّابُلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بَلَغَنا أنَّكَ قلت: إذا كان مع الرَّجل عشرةُ أسهم، وجب أن يَرْمِيَ في الرُّوم سَهْماً، وفينا تسعة، قال: ما قلتُ هذا،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢١/٦. والغلام الطرير: حديث البلوغ. وأراد بذلك الشاب القوى.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٠٥/٦.

(٣) تَنْدُر: تسقط.

(٤) الدرقة هي الترس المصنوع من الجلد بلا خشب.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٣١٤/٩. وسهم عائر: لا يُدري راميه.

(٦) سورة الإسراء: الآية ٥٨.

بل قلت: إذا كان معه عشرةُ أسهم، وجب أن يرميكُمْ بتسعة، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضاً، فإنكم غيّرتم الملّة، وقتلتُم الصّالحين، وادّعيتُم نورَ الإلهية، فشهرَهُ ثمّ ضربه، ثم أمر يهودياً فسلخه"[1].

● ونقل الذهبي في ترجمته لنور الدين محمود زنكي رحمه الله تعالى: قال مجدُ الدين ابنُ الأثير في نقل سبطِ الجوزيّ عنه: لم يلبس نور الدين حريراً ولا ذهباً، ومنع من بيع الخمر في بلاده ـ قلتُ: قد لبس خلعة الخليفةِ والطّوقَ الذّهب ـ قال: وكان كثير الصّوم، وله أورادٌ في الليل والنهار، ويُكثِرُ اللعبَ بالكُرة، فأنكر عليه فقيرٌ، فكتب إليه: والله ما أقصدُ اللعبَ، وإنما نحنُ في ثغرٍ، فربما وقع الصوتُ، فتكونُ الخيل قد أدمنت على الانعطاف والكرّ والفرّ. وأهديت له عمامةٌ من مصر مُذهبةٌ، فأعطاها لابن حمويه شيخ الصوفية فبيعت بألف دينار"[2].

● قال الذهبي: قال له القطبُ النيسابوريُّ: بالله لا تُخاطِر بنفسِك، فإن أصبت في معركةٍ لا يبقى للمُسلمين أحدٌ إلا أخذَهُ السيفُ، فقال: ومن محمودٌ حتى يُقال هذا؟! حفظ الله البلادَ قبلي لا إله إلا هو"[3].

● وعن عبدالرحمن بن مغراء الدّوسي، عن رجل من خُزاعة قال: لمّا اجتمع الناس بالقادسية دعت خنساء بنت عمرو النخعية بنيها الأربعة فقالت: يابنيّ إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرْتم والله ما نبتْ بكم الدّار ولا أقْحمتكم السّنة[4]، ولا أزْداكم الطمع، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجلٍ واحد كما أنكم بنو امرأةٍ واحدة، ما خنتُ أباكم ولا فضحْتُ خالكم، ولا غيّرت نسَبكم ولا أوْطأت حريمكم، ولا أبحتُ حماكم فإذا كان غداً إن شاء الله، فاغدُوا لقتال عدوّكم مستنصرين الله،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦/١٤٨،١٤٩.

(٢،٣) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٥٣٥.

(٤) السّنة: الجدب. يقال: أقحم القوم وأقحمتهم السنة: أي أجدبوا فتركوا منازلهم لغيرها مما يكون فيه الخضرة والمياه.

مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد أبدت ساقها وقد ضربت رُواقها فتيمَّموا وَطِيسَها وجالِدوا خَميسها، تظفروا بالمغنم والسلامة، والفوز والكرامة في دار الخلد والمُقَامة.

فانصرف الفِتية من عندها وهم لأمرِها طائعون، وبنصحها عارفون فلما لقُوا العدوّ شدّ أوّلهم وهو يقول:

يا إخوتا إنَّ العجوز النَّاصِحَهْ	قد أشْرَبتْنا إذ دَعتنا البارحَهْ
نصيحةً ذاتَ بيان واضِحَهْ	فباكِروا الحرب الضَروس الكالِحَهْ
فإنما تلقَون عند الصَّائحة	مِنْ آلِ ساسان كِلاباً نابِحَهْ
قد أيقنوا منكم بوقْع الجائِحَهْ	فأنْتُمُ بينَ حياةٍ صالحةْ

أو ميتةٍ تُورِث غُنماً رَابِحَهْ

ثم شدَّ الذي يليه وهو يقول:

والله لا نعصِي العجوزَ حَرْفَا	قد أمرَتْنا حدبا وعطفا
منها وبِرًّا صَادِقاً ولُطْفَا	فَبَاكِروا الحرب الضَّروس زَحفَا
حتى تَكُفّوا آل كِسْرَى كفّا	وتَكْشِفُوهم عَنْ حِماكم كَشْفَا
إنّا نَرَى التَّقصِيرَ عنهمْ ضَعفَا	والقتلَ فيهم نَجْدَةً وعُرْفَا

ثم شدّ الذي يليه وهو يقول:

لستُ لخنْساءَ ولا للأخْـزمِ	ولا لعَمرو ذِي السَّناء الأقْدمِ
إن لم تَزُر في آلِ جمع الأعْجمِ	جَمْعَ أبي ساسان جمع رُستَم
بكلّ محمودِ اللقاءِ ضَيْغمِ	ماضٍ على الهوْل خِضَمٍّ خضرِمِ
إمَّا لقهرٍ عَاجِل أو مَغْنَم	أو لحياة في السَّبيل الأكرمِ

نفوز فيها بالنَّصِيب الأعْظَمِ

ثم شدّ الذي يليه وهو يقول:

إن العجوز ذاتُ حَزْمٍ وجلَدْ	والنَّظر الأوفقِ والرَّأي السَّدَدْ
قد أمَرتْنا بالصَّواب والرَّشَدْ	نصيحةً منها وبِرًّا بالولَدْ
فباكِروا الحرب نماءً في العَدَدْ	إمَّا لقهرٍ واحتياز للبلَدْ

أو ميتةٍ تُورث خُلداً للأبــدْ في جنَّة الفردوس في عيشٍ رَغَدْ

فقاتلوا جميعا حتى فتح الله عز وجل للمسلمين، وكانوا يُعطون ألفين فيجيئون فَيُصبّونها في حُجرها فتقسم ذلك بينهم حفنةً حفنةً، فما يغادر واحد من عطائه درهَماً[1].

* * *

(١) صفة الصفوة: ٤/٣٨٥-٣٨٧.

□ ١٤ـ السلف والصبر على المصائب □

● عن الأعمش: عن شهر بن حوشب، عن الحارث بن عُميرة، قال: إني لجالس عند معاذ، وهو يموت، وهو يُغمى عليه ويُفيق، فقال: اخنق خَنْقَكَ،فوعزَّتِك إني لأحبك[1].

● وقال المُبرِّدُ: قيل للحسن بن عليٍّ: إنَّ أبا ذر يقولُ: الفقرُ أحبُّ إليَّ من الغنى، والسقمُ أحبُّ إليَّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا فأقول: من اتَّكَلَ على حُسنِ اختيار الله له، لم يَتَمَنَّ شيئاً. وهذا حدُّ الوقوف على الرضى بما تصرف به القضاء[2].

● وعن وَهْب بن منبه أنَّ عيسى عليه السلام قال للحواريين: أشدُّكم جزعاً على المصيبة، أشدُّكم حبّاً للدُّنيا[3].

● وعن الشَّعْبيِّ، قال شُرَيح: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمَدُ الله عليها أربعَ مرَّات، أحمَدُ إذْ لَمْ يكُنْ أعظم منها، وأحمَدُ إذْ رزقني الصَّبْر عليها، وأحمَدُ إذْ وفَّقني للاسترجاع لِمَا أرجو من الثواب، وأحمَدُ إذْ لمْ يجعلْها في ديني[4].

● وقال غسان بن المفضل الغَلابيُّ، حدثني بعض أصحابنا قال: جاء رجل إلى يونس بن عُبيد فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً بذلك. فقال: أيسرُّك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا. قال: فبسمعك؟ قال: لا. قال: فبلسانك؟ قال: لا. قال: فبعقلك؟ قال: لا. في خلال. وذكَّره نعمَ الله عليه، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة[5]؟!.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٦٠/١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٦٢/٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥٥١/٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٠٥/٤.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٩٢/٦.

• وعن أشعث بن سعيد قال: قال ابن عون: لن يصيب العبدُ حقيقة الرّضا حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى، كيف تستقضى الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك ولعلّ ما هويت من ذلك لو وُفّق لك فيه هُلْكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؟ ما أنصفت من نفسك ولا أصبت باب الرضا[1].

• وعن أحمد بن عصام قال: قال زُهير بن نُعيم: إن هذا الأمرَ لا يتم إلا بشيئين: الصَّبر واليقين، فَإنْ كان يقينٌ ولم يكُنْ معه صبرٌ لم يتمْ. وإنْ كَانَ صبرٌ ولم يكن معه يقينٌ لم يتم، وقد ضَرب لهما أبو الدرداءِ مثلاً فقال: مَثَلُ اليقين والصَّبر مثلُ فدّادَيْن[2] يحفران الأرض فإذا جلَسَ واحد جَلَسَ الآخرُ[3].

• وعن عثمان بن الهيثم قال: كان رجل بالبصرة من بني سعد، وكان قائداً من قواد عبيد الله بن زياد فسقط عن السطح فانكسرت رجلاه. فدخل عليه أبو قلابة يعوده فقال له: أرجو أن تكون لك خِيَرة. فقال له: يا أبا قلابة وأي خيرٍ في كسْر رجلَيّ جميعاً؟ فقال: ما ستر الله عليك أكثر.

فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين. فقال للرسول: قد أصابني ما ترى فما كان إلا سبعاً حتى وافى الخبر بقتل الحسين. فقال الرجل: رحم الله أبا قلابة لقد صدق، إنه كان خِيَرةً لي[4].

* * *

---

(١) صفة الصفوة: ٣/٣١١.
(٢) فدّادَيْن: مثنى فدّاد وهو هنا بمعنى الفلّاح الذي يحرث الأرض.
(٣) صفة الصفوة: ٤/٨.
(٤) صفة الصفوة: ٣/٢٣٨.

□ ١٥ـ السلف والفتن في الدين □

● روى عبدالكريم الجزري: عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عماراً، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ. وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ، قال: ما وراءك؟ قال: شرٌ يا رسول الله. والله ما تُرِكْتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «فكيف تجدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌ بالإيمان. قال: «فإن عادُوا فعُدْ»[1].

● وعن شُعبة وهشام: عن قتادة، عن يونس بن جُبير، قال: شيعنا جُنْدباً، فقلتُ له: أوصِنا قال: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نورٌ بالليلِ المظلم، وهُدى بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عرَضَ بلاءٌ، فقدِّم مالكَ دون دينك، فإن تجاوز البلاء، فقدِّم مالك ونفسك دون دينك، فإن المخروبَ من خرب دينُه، والمسلوبَ من سلب دينُه. واعلم أنه لا فاقةَ بعد الجنة، ولا غِنىً بعد النار[1].

● وقال أبو هشام الرفاعي: قال أبو بكر بن عياش للحسن بن الحسن بالمدينة: ما أبقت الفتنةُ منك؟ فقال: وأيُّ فتنة رأيتني فيها؟ قال: رأيتُهم يقبِّلون يدك ولا تمنعُهُم[2].

● وقال صفوان بن صالح حدَّثنا عبدالله بن كثير الدِّمشقيّ القارى حدَّثنا عبدالرحمن ابن يزيد بن جابر، قال: كُنَّا مع رجاء بن حيْوة، فتذاكرنا شُكْرَ النِّعم، فقال: ما أحدٌ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤١١/١. والحديث أخرجه الحاكم ٣٥٧/٢ وصححه، ووافقه الذهبي وأخرجه ابن سعد في الطبقات ١٨٩/٣، وأبو نعيم في الحلية: ١٤٠/١، والطبري في التفسير: ١٢٢/١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧٤/٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥٠٠/٨. وأبو بكر بن عياش اسمه شعبة على الأشهر، وهو صنو حفص في القراءة عن عاصم.

يقوم بشكر نعمة ـ وخلفنا رجل على رأسه كساء ـ فقال: ولا أمير المؤمنين؟ فقلنا: وما ذكرُ أمير المؤمنين هنا! وإنما هو رجل من الناس. قال فغفلنا عنه، فالتفت رجاء فلم يَرَهُ فقال: أتيتم من صاحب الكِسَاء، فإنْ دُعيتم فاستُحْلِفتم فاحلِفُوا! قال: فما علمنا إلا بحَرَسيٍّ قد أقبل عليه، قال: هيه يا رجاء، يُذْكَرُ أمير المؤمنين، فلا تحتجُّ له؟! قال: فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرتم شُكْرَ النِّعم، فقلتم: ما أحَد يقومُ بشُكْرِ نِعْمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين، فقلتَ: أميرُ المؤمنين رجلٌ من النَّاس! فقلتُ: لم يَكُنْ ذلك! قال: آلله؟ قلتُ آلله. قال فأمر بذلك الرجل السَّاعي، فضُربَ سبعين سَوْطاً. فخرجت وهو مُتَلَوِّثٌ بدمِهِ فقال: هذا وأنت رجاءُ بن حَيْوَة قلت: سبعين سَوْطاً في ظهرك خير من دمِ مؤمن. قال ابن جابر: فكان رجاءُ بن حيوةَ بعد ذلك إذا جلس في مجلسٍ يقولُ ويتلفَّتُ: احْذَرُوا صاحبَ الكسَاء[1].

● وقال حنبلٌ: حضرتُ أبا عبدالله وابنَ مَعِين عند عفَّان بعدما دعاهُ إسحاقُ بنُ إبراهيم للمِحنة، وكان أول من امتُحِنَ من الناس عفّان، فسأله يحيى من الغدِ بعد ما امتُحن، وأبو عبدالله حاضرٌ ونحنُ معه، فقال: أخبِرْنا بما قال لكَ إسحاقُ؟ قال: يا أبا زكريا لم أسَوِّدْ وجهَكَ ولا وجُوهَ أصحابِكَ، إني لم أجِبْ. فقال له: فكيفَ كان؟ قال: دعاني وقرأ عليَّ الكتابَ الذي كتَبَ به المأمونُ من الجزيرة، فإذا فيه: امتَحِنْ عفان، وادعُهُ إلى أنْ يقولَ: القرآنُ كذا وكذا، فإن قال ذلك فأقِرَّهُ على أمرِه، وإن لم يُجِبْكَ إلى ما كتبتُ به إليكَ فاقطَعْ عنه الذي يُجرى عليه ـ وكان المأمونُ يُجري على عفّان كلَّ شهرٍ خمسَ مئةِ درهم ـ فلما قرأ عليَّ الكتاب قال لي إسحاقُ، ما تقولُ؟ فقرأتُ عليه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ حتى ختمتُها، فقلتُ: أمخلوقٌ هذا؟ فقال: يا شيخُ إنَّ أميرَ المؤمنين يقولُ: إنَّك إن لم تُجِبْهُ إلى الذي يدعوكَ إليه يقطَعُ عنك ما يجري عليكَ. فقلتُ: ﴿وفي

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥٦١/٤.

قلت: وإنما فعل رجاء بن حيوة ذلك حماية لمن كان معه في المجلس من أن يصيبهم أذى من الشرط قد يصل إلى قتل أحدهم! فهو بهذا يدفع الأذى الأكبر بأذى أخف منه كما صرح في آخر الخبر.

السماء رِزْقُكم وما تُوعدون﴾[1]، فسكت عني، وانصرفتُ. فسُرَّ بذلك أبو عبدالله ويحيى[2].

● وعن الهيثم بنِ خلف الدُّوري أنَّ محمد بن سُوَيد الطُّحَّان حدَّثه قال: كنَّا عند عاصم بنِ علي ومعنا أبو عُبيد، وإبراهيمُ بنُ أبي اللَّيث وجماعة، وأحمدُ ابنُ حنبل يُضرَبُ، فجعل عاصمٌ يقولُ: ألا رجلٌ يقومُ معي، فنأتي هذا الرجلَ، فنكلِّمه؟ قال: فما يُجيبه أحد، ثم قال ابنُ أبي الليث: أنا أقومُ معك يا أبا الحُسين، فقال: يا غلامُ: خُفِّي. فقال ابنُ أبي الليث: يا أبا الحسين أبْلُغُ إلى بناتي، فأوصيهم، فظننَّا أنه ذهب يتكفَّنُ ويتحنَّطُ، ثم جاء، فقال: إني ذهبتُ إليهن، فبكيْنَ، قال: وجاء كتابُ ابنتَيْ عاصم من واسط: يا أبانا إنَّه بلغنا أنَّ هذا الرجلَ أخذ أحمدَ بن حنبل، فضربه على أن يقول: القرآنُ مخلوق، فاتَّقِ الله، ولا تُجِبْهُ فوالله لأنْ يأتينا نعيُك أحبُّ إلينا من أنْ يأتينا أنك أجبت[3].

● وعن أبي جعفر الأنباري قال: لما حُمِلَ أحمد إلى المأمون، أُخبرت، فعبَرْتُ الفراتَ، فإذا هو جالس في الخان، فسلمتُ عليه، فقال: يا أبا جعفر، تَعَنَّيْتَ. فقلتُ: يا هذا أنت اليومَ رأسٌ، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن، ليُجيبَنَّ خلقٌ، وإن أنتَ لم تُجِبْ، ليَمتَنِعَنَّ خلْقٌ من الناس كثير. ومع هذا فإنَّ الرجل إن لم يقتُلْك فإنَّك تموتُ، لابُدَّ من الموت، فاتقِ الله ولا تجب. فجعل أحمد يبكي، ويقول: ما شاء الله. ثم قال: يا أبا جعفر، أعِدْ عليَّ فأعدت عليه، وهو يقول: ما شاء الله[4].

● وقال صالح بن أحمد: حُمِلَ أبي ومحمد بن نوح من بغداد مقيَّدَيْنِ، فصِرنا معهما إلى الأنبار. فسأل أبو بكر الأحول أبي: يا أبا عبدالله، إن عُرِضت

---

(١) سورة الذاريات: آية ٢٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٤٤/١٠.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٦٤/٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٣٩/١١.

على السيف، تُجيب؟ قال: لا. ثم مُبَرًا، فسمعتُ أبي يقول: صِرنا إلى الرَّحْبَة[1]، ورَحَلنا منها في جوف الليل، فَعَرَضَ لنا رجل، فقال: أيُّكم أحمدُ بن حنبل؟ فقيل له: هذا، فقال للجَمَّال: على رِسْلك، ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتل ها هنا، وتدخل الجنة؟ ثم قال: أستودعُك الله، ومضى. فسألتُ عنه، فقيل لي: هذا رجل من العربِ من ربيعة يعمل الشَعَر[2] في البادية، يقال له: جابرُ بن عامر، يُذكَر بخير[3].

● وعن أحمد بن الحَوَاري: حدثنا إبراهيم بن عبدالله، قال: قال أحمد بن حنبل: ما سمعتُ كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق. قال: يا أحمد، إنْ يقتلْك الحقُّ، مُتَّ شهيداً، وإنْ عِشت، عشت حميداً. فقوّى قلبي[4].

● وقال حنبل: قال أبو عبدالله: ما رأيت أحداً على حداثة سِنّه، وقدْرِ علمه أقومَ بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أنْ يكون قد خُتم له بخير. قال لي ذاتَ يوم: يا أبا عبدالله، الله الله، إنك لستَ مثلي. أنتَ رجلٌ يُقْتَدي بك. قد مدَّ الخلق أعناقَهم إليك، لِمَا يكون منك، فاتقِ الله واثبُتْ لأمر الله، أو نحو هذا. فماتَ، وصليتُ عليه، ودفنته. أظن قال: بعانة[5].

* * *

(١) الرحبة: هي رحبة مالك بن طوق تقع بين بغداد والرقة.

(٢) في رواية حنبل: يعمل الصوف.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٤١.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٤٢.وعانة بلد مشهور بين الرقة وهيت مشرفة على الفرات وبها قلعة حصينة.

□ ١٦ـ السلف والفتن بين المسلمين □

• قال أبو نعيم: حدثنا أبو أحمد الحاكم، حدثنا ابن خزيمة، حدثنا عِمران ابن موسى، حدثنا عبدالوارث، حدثنا محمد بن جُحادة، عن نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن حصين بن خارجة الأشجعي قال: لما قُتل عثمان، أشكلت عليّ الفتنة، فقلتُ: اللهم أرني من الحق أمراً أتمسك به، فرأيتُ في النوم الدنيا والآخرة بينهما حائط، فهبطتُ الحائط، فإذا بنفر، فقالوا: نحن الملائكة، قلتُ: فأين الشهداء؟ قالوا: اصعد الدرجات، فصعدتُ درجةً ثم أخرى، فإذا محمد وإبراهيم، صلى الله عليهما، وإذا محمد يقول لإبراهيم: استغفر لأمتي، قال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم اهراقوا دماءهم، وقتلوا إمامهم، ألا فعلوا كما فعل خليلي سعد؟ قال: قلتُ: لقد رأيتُ رؤيا، فأتيت سعداً، فقصصتها عليه، فما أكثر [بها][1] فرحاً، وقال: قد خاب من لم يكن إبراهيم عليه السلام خليله، قلتُ: مع أيّ الطائفتين أنت؟ قال: ما أنا مع واحد منهما، قلتُ: فما تأمرني؟ قال: هل لك من غَنم؟ قلتُ: لا، قال: فاشتر غنماً، فكن فيها حتى تنجلي[2].

• وقال أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد بن وهب قال: لما بعث عثمان إلى ابن مسعود يأمره بالمجيء إلى المدينة، اجتمع إليه الناسُ، فقالوا: أقم فلا تخرج، ونحن نمنعك أنْ يصلَ إليك شيءٌ تكرهه. فقال: إنَّ له علي طاعة، وإنها ستكون أمور وفتنٌ لا أحب أن أكونَ أولَ من فتحها. فردُّ الناس وخرج إليه[3].

• وعن عبدالله بن عامر بن ربيعة قال لما طعنوا على عثمان، صلّى أبي في الليل، ودعا، فقال: اللهم قِني من الفِتنة بما وَقيتَ به الصالحين من عبادك، فما أخرج، ولا أصبح، إلا بجنازته[4].

---

(١) ما بين القوسين زيادة يقتضيها النص وهي مأخوذة من مستدرك الحاكم: ٣/٥٠١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/١٢٠. والخبر أخرجه أيضا الحاكم: ٣/٥٠١،٥٠٢ ورجاله ثقات.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١/٤٨٩.　　　(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٣٥.

● وحدّث ابن عُيَيْنة: عن عمر بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، قال: بعث إليّ عليٌ، فقال: يا أبا عبدالرحمن! إنكَ رجلٌ مُطاعٌ في أهل الشام، فسِرْ فقد أمّرتُك عليهم. فقلتُ: أذكّرك الله، وقرابتي من رسول الله ﷺ وصحبتي إياه، إلا ما أعفيْتني، فأبى عليّ. فاستعنتُ عليه بحفصة، فأبى. فخرجتُ ليلاً إلى مكة، فقيل له: إنه قد خرَجَ إلى الشام. فبعث في أثري، فجعل الرجلُ يأتي المربد، فيخطم بعيره بعمامته ليدركني. قال: فأرسلت حفصةُ: إنّه لمْ يَخْرُجْ إلى الشام، إنّما خرج إلى مكة. فسكن[1].

● وعن عبدالله بن عُبَيد بن عُمير، عن ابن عمر، قال: إنما مَثَلُنا في هذه الفتنة كمثل قوم يسيرون على جادّةٍ يعرفونها، فبينا هم كذلك، إذْ غَشِيتهُم سحابةٌ وظلمةٌ، فأخذَ بعضُهم يميناً وشمالاً، فأخطأ الطريقَ، وأقمنا حيث أدركنا ذلك، حتى جلا الله ذلك عنّا، فأبصرنا طريقنا الأول، فعرفناه، فأخذنا فيه. إنما هؤلاء فتيانُ قريش يَقْتَتِلُون على هذا السلطان وعلى هذه الدنيا، ما أُبالي أن لا يكونَ لي ما يَقتُلُ عليه بعضُهم بعضاً بنعليّ هاتين الجرداوين[2].

● وعن سلّام بن مسكين: سمعتُ الحسن يُحدِّثُ قال: لما قُتِل عثمانُ، قالوا لابنِ عُمر: إنكَ سيّدُ الناس وابنُ سَيّدِهم، فاخرُجْ يبايعْ لك الناسُ. فقال: لئن استطعتُ لا يُهراق فيَّ مِحْجَمَةٌ. قالوا: لتخرُجنَّ أو لنُقْتلنَّ على فراشك، فأعاد قوله. قال الحسن: أطمعوه وخوّفوه، فما قدروا على شيء منه[3].

● وقال الذهبي في ترجمته لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: وخلف معاوية خلقٌ كثير يُحبونه ويَتَغالونَ فيه ويُفَضّلُونَهُ، إمّا قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإمّا قد وُلدوا في الشام على حُبِّه، وتَرَبّى أولادهم على ذلك. وفيهم جماعةٌ يسيرةٌ من الصحابة، وعددٌ كثيرٌ من التابعين والفضَلاء، وحاربوا معه أهلَ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢٤/٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٣٧/٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٣٩/٣.

العراق، ونشأوا على النَّصْب، نعوذُ باللهِ من الهوى. كما قد نشأ جيش عليٍّ رضي الله عنه، ورعيَّته ـ إلا الخوارج منهم ـ على حُبِّه والقيامِ معه، وبُغض من بغى عليه والتبري منهم، وغلا خلق منهم في التشيع. فبالله كيفَ يكون حالُ من نشأ في إقليم، لا يكاد يُشاهد فيه إلّا غالياً في الحب، مُفرطاً في البغض، ومن أينَ يقعُ له الإنصافُ والاعتدال؟ فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمانٍ قد انمحص فيه الحقُّ، واتَّضحَ من الطرفين، وعرفْنا مآخذَ كل واحدٍ من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرْنا، واستغفرْنا، وأحببْنا باقتصاد، وترحَّمْنا على البُغاة بتأويلٍ سائغ في الجملة، أو بخطإٍ إن شاء الله مغفورٍ وقلنا كما علَّمنا الله ﴿ربَّنا اغفرْ لنا ولإخوانِنا الذين سبقُونا بالإيمان ولا تجْعل في قُلوبِنا غِلًّا للذين آمنوا﴾[1] وترضَّينا أيضاً عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقَّاص، وابنِ عُمر، ومحمد بنِ مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق. وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليّاً، وكفَّروا الفريقين. فالخوارجُ كلابُ النار، قد مَرَقُوا من الدين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النار، كما نقطع به لعَبدة الأصنام والصلبان[2].

● وعن عمرو بن مُرَّة: عن الشَّعْبي، قال: كان مسروق إذا قيل له: أبطأتَ عن عليٍّ وعن مَشاهِدِه، فيقول: أرأيتم لو أنَّه حين صُفَّ بعضُكم لبعض فنزل بينكم ملك فقال: ﴿ولا تقْتُلوا أنفُسكمْ إنَّ الله كان بكُمْ رحيماً﴾[3] أكان ذلك حاجزاً لكم؟ قالوا: نعمْ. قال: فوالله لقد نزل بها ملَكٌ كريم على لِسان نبيِّكم، وإنَّها لَمُحْكَمَةٌ ما نسخها شيء[4].

● وعن الثوري: عن الحارث الأزدي، قال قال ابن الحنفيَّة: رحم الله امرأً أغْنى

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٢٨/٣.

قلت: رحمة الله على الإمام الذهبي وجزاه الله على كلامه هذا خير الجزاء ففيه بيان شافٍ للمنهج السديد والميزان القويم الذي ينبغي أن يؤتسى به في التعامل مع الفتن الواقعة بين المسلمين.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٩.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦٨/٤.

نفسَه، وكفَّ يدَه، وأمسكَ لسانه، وجلس في بيته، له ما احتسبَ، وهو مع من أحبَّ. ألا إن أعمالَ بني أميَّة أسرعُ فيهم من سيوف المسلمين. ألا إن لأهل الحق دولةً يأتي بها الله إذا شاء. فَمَنْ أدرك ذلك، كان عندنا في السهم الأعلى، ومَنْ يمتْ، فما عند الله خيرٌ وأبقى[1].

● وقال أبو عَقِيل بشير بن عُقْبة: قلت ليزيد بن الشخير: ما كانَ مُطَرِّفٌ يصنعُ إذا هاجَ الناس؟ قال: يلزمُ قَعْرَ بيته، ولا يَقْرُب لهم جُمُعَة ولا جماعةً حتى تنجلي[2].

● وقال أيوب: قال مُطرِّف: لأنْ آخُذَ بالثِّقةِ في القعود أحبُّ إليَّ منْ أنْ ألْتمس فَضْل الجهاد بالتغرير[3].

● وقال حُميد بن هلال: أتتِ الحرورية مُطرِّف بن عبدالله يدعونه إلى رأيهم، فقال: يا هؤلاء، لو كان لي نفسانِ بايَعْتُكم بإحداهما وأمسكتُ الأخرى، فإنْ كانَ الذي تقولون هُدَى أتْبَعْتُها الأخرى، وإن كان ضلالةً، هلكَتْ نفسٌ وبقيتْ لي نفْس، ولكنْ هي نفْسٌ واحدة لا أغرِّرُ بها[4].

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢٣/٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٩١/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٩١/٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٩٥/٤.

□ ١٧ـ السلف وفتنة السلاطين □

● عن الأعمش: عن مالك بن الحارث، عن عبدالرحمن بن يزيد، قُلنا لعلقمة: لو صلَّيْتَ في المسجد وجلسنا معك فتُسْأل، قال: أكره أنْ يُقال: هذا علقمة، قالوا: لو دَخَلْتَ على الأمراء، قال: أخافُ أن ينقِصُوا مني أكثر مما أنتقِص منهم[١].

● وقال سُليمان التَّيْمي، قال الأحنف: ثلاثٌ فيَّ ما أذْكُرُهُنَّ إلا لِمُعْتَبِرٍ، ما أتيتُ بابَ السلطان إلّا أن أُدْعَى، ولا دخلتُ بين اثنين حتى يُدْخلاني [بينهما]، وما أذكر أحداً بعد أنْ يقومَ مِن عندي إلا بخير[٢].

● وقال عبدالرزاق: سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدث أن محمد بن يوسف، أو أيوب بن يحيى بعث إلى طاووس بسبع مئةِ دينار أو خمس مئة، وقيل للرسول: إن أخذَها الشيخُ منك، فإن الأميرَ سيُحْسنُ إليك ويكسوك، فَقَدِمَ بها على طاووس الجَنَد، فأراده على أخذها، فأبى، فغفل طاووس، فرمى بها الرجل في كُوَّة البيت، ثم ذهب وقال لهم: قد أخذها، ثم بلغهم عن طاووس شيءٌ يكرهونه فقال: ابعثوا إليه، فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسولُ، فقال: المال الذي بعث به الأمير إليكَ، قال: ما قبضتُ منه شيئاً، فرجع الرسولُ، وعرفوا أنه صادق، فبعثوا إليه الرجلَ الأول، فقال: المالَ الذي جئتُك به يا عبد الرحمن، قال: هل قبضتُ منك شيئاً؟ قال: لا، ثم نظر حيث وضعه، فمدَّ يدَه فإذا بالصُّرَّة قد بنى العنكبوتُ عليها، فذهب بها إليهم[٣].

● وعن مَعْمر بن سليمان، عن فرات بن السائب، عن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تَبْلُوَنَّ نفسَك بهنَّ: لا تدخُلْ على السلطان، وإن قلت: آمُرُه بطاعةِ الله،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٥٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/٩٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥/٤٠.

ولا تُصْغِيَنَّ بسَمْعِك إلى ذي هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تَدْخُلْ على امرأةٍ، ولو قلتَ: أُعلِّمها كتابَ الله[1].

• وروى كثير بن يحيى، عن أبيه قال: قدم سليمانُ بن عبد الملك المدينةَ، وعُمرُ بن عبد العزيز عامل عليها، قال: فصلَّى بالناس الظهر، ثم فتح بَاب المقصورة، واستند إلى المحراب، واستقبل الناسَ بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سُليم، فقال لِعُمَرَ: من هذا؟ ما رأيتُ أحسن سمتاً منه. قال: صفوان، قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم، فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يُصلي، ثم سلم، فأقبل عليه، فقال: ما حاجتُك؟ قال: يقولُ أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك، فقال صفوان: لستُ الذي أرسلتَ إليه، قال: ألستَ صفوان بن سُليم؟ قال: بلى. قال: فإليك أرْسِلْتُ، قال: اذهب فاستثبت، فولَّى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة[2].

• وقال ابن شوْذب: قسم أمير البصرة على قرائها، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ، فقال له ابنُ واسع: قبلتَ جوائزهم؟ قال: سل جلسائي. قالوا: يا أبا بكر اشترى بها رقيقاً فأعتقهم. قال: أنشدك الله، أقلبُك الساعة على ما كان عليه؟ قال: اللهم لا، إنما مالك حمار، إنما يعبد الله مثلُ محمد بن واسع[3].

• وعن هشام بن عباد، سمعت جعفر بن محمد يقول: الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتُم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين، فاتهموهم[4].

• وقال عبدالله بن خُبَيْق: حدثنا عُبَيْد بن جناد، حدثنا عطاء بن مُسلم، قال: لما استُخلِف المهدي، بعث إلى سُفيان، فلما دَخَلَ عليه، خَلَعَ خاتَمه، فرمى به إليه، وقال:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧٧/٥.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣٦٨/٥.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٢٠/٦.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٦٢/٦.

يا أبا عبدِ الله! هذا خاتَمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسُّنَّة. فأخذ الخاتم بيده، وقال: تأذنُ في الكلام يا أميرَ المؤمنين؟ ـ قلت لعطاء: قال له: يا أميرَ المؤمنين؟ قال: نعم ـ قال: أتكلم على أنّي آمن؟ قال: نعم. قال: لا تبعث إليَّ حتى آتيك، ولا تُعطني حتى أسألك. قال: فغضب، وهمَّ به، فقالَ له كاتِبُهُ: أليس قَد أمَّنته؟ قال: بلى. فلما خرَج، حفَّ به أصحابُه، فقالوا: ما منعك، وقد أمرك، أن تعمل في الأمة بالكتاب والسُّنَة؟ فاستصغر عقولهم، وخرج هارباً إلى البصرة[1].

• وعن سُفيان قال: ليس أخافُ إهانتهم، إنما أخاف كرامتهم، فلا أرى سيئتهم سيئة لم أرَ للسُّلطان مثلاً إلا مثلاً ضُرِب على لسان الثَّعلب، قال: عَرَفتُ للكلب نيفاً وسبعين دستاناً[2]، ليس منها دستانٌ خيراً من أن لا أرى الكلب ولا يراني[3].

• وقال الحسن بن الربيع: لما احتُضِرَ ابن المبارك في السَّفر قال: أشتهي سويقاً، فلم نجدْه إلا عند رجل كان يعمل للسلطان، وكان معنا في السفينة، فذكرْنا ذلك لعبد الله، فقال: دعوه، فمات ولم يَشْرَبْه[4].

• وعن فُضَيل بن عياض قال: سئل ابن المبارك: مَن النَاس؟ قال: العلماء. قال: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قال: فمن السَّفِلَة؟ قال: الذي يأكل بدينه[5].

• وعن أحمد بن جميل المروزى قال: قيل لعبد الله بن المبارك: إن إسماعيل بن عُليَّة قد وَلِيَ الصَّدقات. فكتب إليه ابن المبارك.

يا جاعلَ العِلْم له بَازياً[6] يَصْطادُ أموال المساكين

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/٢٦٢.
(٢) الدستان: كلمة فارسية معناها المكر والحيلة.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/٢٦٢.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٨/٤١١.
(٥) صفة الصفوة: ٤/١٤٠.
(٦) البازى: نوع من أنواع الصقور.

اخْتَلَتْ للدّنيا ولذّاتِها	بِحيلةٍ تَذهبُ بالدِّينِ
فَصِرْتَ مَجْنُوناً بها بعدَما	كُنتَ دَوَاءً للمجانينِ
أينَ رِوَاياتُك في سَرْدِها	عن ابن عونٍ وابن سيرين؟
أين رِواياتُك والقولُ في	لِزُوم أبوابِ السَّلاطين؟
إن قلتَ أُكرِهْتُ فما ذا كذا	زَلَّ حِمارُ العِلْم في الطِّين

فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى[1].

● وعن سُحنون قال: أكْلٌ بالمسكنةِ، ولا أكْلٌ بالعلم. مُحِبُّ الدنيا أعمى، لم يُنَوِّرْهُ العِلْمُ. ما أقبحَ بالعالمِ أن يأتي الأمراءَ، والله ما دخلْتُ على السلطانِ إلا وإذا خرجتُ حاسبتُ نفسي، فوجدتُ عليها الدَّرك[2]، وأنتم تَرَوْنَ مُخالفتي لهواه، وما ألقاهُ به من الغِلْظةَ، والله ما أخذت، ولا لبست لهم ثوباً[3].

● وقال العنبري، سمعت البُوشنجي، سمعت أبا صالح الفراء، سمعتُ يوسُف بن أسباط يقول: قال لي سُفيان: إذا رأيت القارىء يلوذ بالسُّلطان، فاعلم أنَّه لِصٌّ، وإذا رأيتَه يلوذُ بالأغنياء فاعلم أنه مُراءٍ، وإيَّاك أن تُخْدع، ويقال لك: ترد مظلمة، وتدفع عن مظلوم، فإنَّ هذه خِدعةُ إبليس، اتَّخذَها القُرَّاء سُلَّماً[4].

* * *

---

(١) صفة الصفوة: ٤/١٤٠، سير أعلام النبلاء: ٨/٤١١،٤١٢.

(٢) الدرْك: بفتح الراء وإسكانها أي التبعة.

(٣) سير أعلم النبلاء: ١٢/٦٥.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٣/٥٨٦.

□ ١٨- السلف وفتنة النساء(*) □

• عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[1].

• وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[2].

• وعن أشعث بن سليم قال: سمعت رجاء بن حَيْوة، عن معاذ بن جبل قال: ابتليتم بفتنةَ الضّراء فصبرتم، وستُبتلون بفتنة السّراء، وأخْوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تَسَوّرن الذهب، ولبسن رِياط الشام وعصْبَ اليمن[3] فأتْعَبْنَ الغنى وكلَّفن الفقير مالا يجد[4].

• وعن علي بن زيد عن سعيد بن المسيِّب قال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء وقال لنا سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبتْ إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما من شيء أخوف عندي من النساء[5].

(*) هذا الفصل مستثنى من شرط الكتاب الالتزام بكتابي: سير أعلام النبلاء وصفة الصفوة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في النكاح - ١٧ باب ما يتقى من شؤم المرأة ح ٥٠٩٦ (فتح ٩/٤١) وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦ باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء .. ح ٢٧٤٠ (٤/٢٠٩٧).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦ باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء ٩٩ ح ٢٧٤٢ (٤/٢٠٩٨).

(٣) رياط: جمع ربطة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة أو هي كل ثوب رقيق لين. وعصب اليمن: نوع من برود اليمن مخطط.

(٤) صفة الصفوة: ١/٤٩٧.

(٥) صفة الصفوة: ٢/٨٠.

• وعن عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا إبراهيم بن الحسن الباهلي، حدثنا حماد ابن زيد قال: قال يونس بن عُبيد: ثلاثة احفظوهن عني: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلُوَنَّ أحدُكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يُمكِّن أحدُكم سمعَه من أصحاب الأهواء[1].

• وقال عباس الدُوري: كان بعض أصحابنا يقول: كان سفيان الثوريُ كثيراً ما يتمثَّل بهذين البيتين:

تَفْنى اللَّذاذةُ ممن نال صفوتَها … من الحرام ويبقَى الوِزْرُ والعارُ
تبقَى عواقبُ سوءٍ في مَغَبَّتِها … لا خيرَ في لذَّةٍ من بعدها النارُ[2]

• وقال الحسين بن مُطَيْر:

ونفسَك أكرِم عن أمورٍ كثيرةٍ … فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقرَبِ المَرْعَى الحرامَ فإنما … حلاوتُه تفنى ويبقى مَريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الفُتُوَّة تركُ ما تهوى لما تخشى[3].

• وقال محمد بن إسحاق: نزل السريُّ بن دينار في دَربٍ بمصر وكانت فيه امرأةٌ جميلةٌ فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة فقالت: لأفتننَّه، فلما دخلت من باب الدار تكشَّفت وأظهرت نفسها، فقال: مالك؟ فقالت: هل لك في فراشٍ وَطِيٍّ وعيشٍ رخيٍّ؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكم ذي معَاصٍ نال منهنَّ لذَّةً … ومات فخلاها وذاق الدواهيا
تُصَرَّمُ لذَّات المعاصي وتنقضي … وتبقى تَبِاعاتُ المعاصي كما هيا
فيا سَوْءتا والله راءٍ وسامعٌ … لعبدٍ بعين الله يَغْشى المعاصيا[4]

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/٢٩٣.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم: ص ٣٣٠.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) روضة المحبين لابن القيم: ص ٣٣٩.

• وذكر أبو الفرج وغيره أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يوما إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فأْذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك.

قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك، قال: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك.

قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرُكِ أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: اتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؛ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروسا فصيرها راهبة[1].

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ص ٢٤٠.

● وقال ابن القيم رحمه الله: وقد جعل الله سبحانه العين مِرْآة القلب، فإذا غضَّ العبدُ بصرَه غضَّ القلب شهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلق بصرَه أطلقَ القلب شهوتَه .... [قال]: وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناهُ النُّطْقُ، والرِّجْلُ تزني وزناها الْخُطَى، واليد تزني وزناها الْبَطْشُ، والقلب يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُه»[1] فبدأ بزنا العين لأنه أصل زنا اليد والرِّجل والقلبِ والفَرْج، ونبّه بزنا اللسان بالكلام على زنا الفم بالقُبَل، وجعل الفرج مصدقاً لذلك إن حقَّق الفعلَ، أو مكذباً له إن لم يُحَقِّقْهُ. وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصى بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رَدٌّ على من أباح النظر مطلقاً. وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يا عَلِيُّ لا تُتْبِع النَّظرةَ النَّظْرَةَ فإنَّ لك الأولىٰ وليْسَتْ لك الثَّانِيَة»[2]. ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرةً فعلق حبُّها بقلبه واشتدَّ عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمُّدُ النظرِ ثانياً لهذا المعنى؟

فكان الجواب: الحمد لله لا يجوز هذا لعشر أوْجُه:

أحدها: أن الله سبحانه أمر بغضّ البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه على العبد.

الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الْفَجْأة، وقد علم أنه يؤثِّر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري بألفاظ مقاربة في الاستئذان (١٢) باب زنا الجوارح دون الفرج. (فتح ١١/٢٨) ح ٦٢٤٣، وأخرجه مسلم بألفاظ مقاربة أيضاً في القدر (٥) باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره. ٢٠، ٢١ (٤/٢٠٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٤٤) باب ما يؤمر به من غض البصر ح ٢١٤٩ (٢/٦١٠). والترمذي في الأدب باب نظر الفجأة ح ٢٧٧٨ (٨/١٩). وحسنه الألباني (صحيح أبي داود ٢/٤٠٣ رقم ١٨٨١).

الثالث: أنه صرّح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحالٌ أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوةُ الأمر بالنظرة الثانية لا تناقُصُهُ، والتجربةُ شاهدةٌ به، والظاهر أن الأمر كما رآه أولَ مرةٍ فلا تحسنُ المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابُه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسنٍ لِتَتِمَّ البلية.

السابع: أنه لا يُعانُ على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرّمه عليه، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، ومعلومٌ أن الثانية أشدُ سمًا فكيف يتداوى من السمِّ بالسمِّ؟.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عزَّ وجلَّ في ترك محبوبٍ كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبيَّن حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًا تركه، فإذاً يكون تركُهُ لأنه لا يلائم غرضَه لا لله تعالى، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟.

العاشر: يتبين بضرب مثلٍ مطابقٍ للحال وهو أنك إذا ركبتَ فرساً جديداً فمالت بك إلى دربٍ ضيقٍ لا ينفذُ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدُّخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوةً أو خطوتين فَصِحْ بها ورُدَّها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكَّن دخولُها، فإن رَدَدْتَها إلى ورائها سَهُل الأمر، وإن توانيت حتى ولَجت وسُقْتَهَا داخلاً ثم قمت تَجْذبها بذَنبها عَسُر عليك أو تعذَّر خروجُها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سَوْقها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت في القلب، فإن عَجِل الحازمُ وحَسَم المادَّة من أوَّلها سَهُل علاجُه، وإن كرَّر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلبٍ فارغٍ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تَنْمى حتى يفسد القلب ويُعْرِضَ عن الفكر فيما أُمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكابَ المحظورات والفتن، ويُلقي القلبَ

في التلَف. والسببُ في هذا أن الناظر التذّت عينُه بأوّل نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضّ أوّلاً لاستراح قلبُه وسَلِم، وتأمّل قول النبي ﷺ: «النظرةُ سهمٌ مَسْمُومٌ مِن سِهَام إبْلِيس»[1] فإن السَّهْمَ شأنُه أن يسرىَ في القلب فيعمل فيه عمل السمّ الذي يُسْقَاه المسمومُ، فإن بادر واسْتَفْرَغه وإلا قتله ولابدّ[2].

● وقال ابن القيم أيضاً رحمه الله: «وفي غض البصر عِدّة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظرَه دامت حسرتُه، فأضرُّ شيء عَلَى القلب إرسال البصر، فإنه يرُيه ما يشتدّ طلبه ولا صبرَ له عنه ولا وصولَ له إليه، وذلك غايةُ ألمه وعذابه، قال الأصمعي: رأيت جاريةً في الطواف كأنها مَهَاةٌ، فجعلت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليكِ من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرفَك رائداً ... لقلبك يوماً أتْعَبَتْكَ المناظِر

رأيتَ الذي لا كله أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّمِيَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرْمىَ في الحشيش اليابس، فإن لم تُحرقْه كلَّه أحرقت بعضَه كما قيل:

كل الحوادث مَبْداها من النظر ... ومُعْظَمُ النار من مُسْتَصْغَرِ الشّرر

كم نظرةٍ فَتَكَتْ في قلب صاحبها ... فَتْكَ السهام بلا قوسٍ ولا وَتَر

والمرءُ ما دام ذا عينٍ يُقَلّبُهَا ... في أعين الغيدِ موقوفٌ عَلَى الخطر

يَسُرّ مقلَته ما ضرَّ مهجته ... لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر

والناظر يَرْمي من نظره بسهامٍ غَرَضها قلبُه وهو لا يَشْعُر، فهو إنما

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣١٤ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بتضعيف رجلين من رجال الإسناد هما إسحاق بن عبدالواحد القرشي، وعبدالرحمن الواسطي.

(٢) روضة المحبين: ٩٢-٩٥ مع اختصار يسير في أوله.

يرْمي قلبَه، ولي من أبيات:

يا رامياً بسهام اللَّحْظِ مجتهداً أنتَ القتيلُ بما يرمي فلا تُصِبِ

وباعثَ الطرف يَرْتاد الشفاءَ له تَوَقَّهُ إنَّه يأتيك بالعَطَبِ[1]

* * *

(١) روضة المحبين: ص ٩٧. وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - فوائد أخرى عديدة لغض البصر فليراجعها من شاء في المرجع السابق ص ١٠١ إلى ص ١٠٥.

□ ١٩ـ السلف والبر بالأمهات □

● عن محمد بن سيرين قال: بلغت النخلةُ في عهد عثمان بن عفان ألف درهم. قال: فعمد أسامة[١] إلى نخلة فعقرها فأخرج جُمّارها[٢] فأطعمه أمه، فقالوا له: ما يحملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟ قال: إن أمي سألتنيه ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها[٣].

● وعن عبدالله بن المبارك قال: قال محمد بن المنكدر: بات عمر، يعني أخاه، يصلي وبتّ أغمز رجْل أمي[٤] وما أحبّ أنّ ليلتى بليلته[٥].

● وعن ابن عون قال: دخل رجل على محمد بن سيرين عند أمه فقال: ما شأن محمد؟ يشتكي شيئاً؟ فقالوا: لا ولكن هكذا يكون إذ كان عند أمه[٦].

● وعن هشام بن حسان، عن حفصة بنت سيرين قالت: كان محمد إذا دخل على أمه لم يكلمها بلسانه كلّه تخشعاً لها[٧].

● وعن ابن عون: أن أمه نادته فأجابها، فعلا صوته صوتها، فأعتق رقبتين[٨].

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حبه. أمه أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ.

(٢) جُمَّار النخلة: قبها وشحمتها التي في قمة رأس النخلة، وهي بيضاء كأنها قطعة سنام ضخمة، تؤكل بالعسل.

(٣) صفة الصفوة: ٥٢٢/١.

(٤) أي يجسها ويكبسها بيده ليذهب ما بها من ألم.

(٥) صفة الصفوة: ١٤٣/٢.

(٦) صفة الصفوة: ٢٤٥/٣.

(٧) صفة الصفوة: ٢٤٥/٣.

(٨) سير أعلام النبلاء: ٣٦٦/٦.

• وعن هشام بن حسان قال كان الهُذَيل بن حفصة يَجْمع الحطب في الصيف فيَقْشُره ويأخذ القصب فيفْلِقه،قالت حفصة وكنت أجد قرَّةً فكان إذا جاءَ الشتاءُ جاءَ بالكانون فيضعه خلفي وأنا في مُصَلَّاى ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر وذاك القصب المفلَّق وَقُوداً لا يؤذى دُخانه ويُدفئنى. نمكث بذلك ما شاءَ الله. قالت: وعنده مَن يكفيه لو أراد ذلك. قالت: وربما أردت أنصرف إليه فأقول يابني ارجع إلى أهلك ثم أنكر ما يريد فأدعه.

قالت حفصة[1]: فلما مات رزق الله عليه من الصبر ما شاءَ أن يرزُقَ غير أنىّ كنت أجد غُصّةً لا تذهب. قالت فبينا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النحل إذ أتيت على هذه الآية: ﴿ولا تشتروا بعهْد الله ثَمَناً قليلاً إنَّ مَا عِنْدَ الله هُوَ خيْرٌ لَكُم إنْ كُنتُمْ تعلَمون، ما عِنْدكَمُ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله باقٍ ولنجْزِين الذين صَبَروا أجرَهم بأحْسَنِ ما كانوا يعمَلون﴾[2] قالت: فأعدتُها فأذهبَ الله ما كنت أجِد.

قال هشام: وكانت له لِقْحة[3]. قالت حفصة: كان يبعث إلىّ بحَلْبةٍ بالغداة فأقول: يابني إنك لتعلم أنى لا أشربه، أنا صائمة. فيقول: ياأم الهذيل إن أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل، اسقيه من شئت[4].

• وذكر عبدالرحمن بن أحمد، عن أبيه: أنَّ امرأةً جاءت إلى بَقِيّ، فقالت: إنَّ ابني في الأسر، ولا حِيْلة لي، فلو أشَرْتَ إلى من يَفْدِيه، فإنني وَالِهَةٌ. قال: نعم، انصَرِفي حتَّى أنْظرَ في أمرِه. ثم أطْرَق، وحرَّك شفَتَيْه، ثم بَعْد مُدّة جاءت المرأة بابنها، فقال: كنتُ في يد مَلِكٍ، فبَيْنا أنا في العَمَل، سَقَطَ قَيْدي. قال: فذكر اليَوْم والسَّاعة، فوافَقَ وَقْتَ دُعاء الشَّيْخ. قال: فَصَاحَ على المُرَسِّم بنا، ثم نَظَر وتَحَيَّر، ثم أحْضَر الحدَّاد وقيَّدَني، فلما فرغه ومَشَيْت سَقَطَ القَيْد، فبُهِتوا، ودَعَوا

---

(١) هي حفصة بنت سيرين العابدة الجليلة أخت محمد بن سرين وأم الهذيل.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٩٥،٩٦.

(٣) اللِقحة: الناقة الحلوب غزيرة اللبن.

(٤) صفة الصفوة: ٤/٢٥.

رُهْبَانهم، فقالُوا: أَلَكَ والدة؟ قلتُ: نعم، قالوا: وافق دعاءها الإجابةُ.

هذه الواقِعة حدَّث بها الحافظُ حمْزة السَّهمي، عن أبي الفَتح نصْر بن أحمد بن عبد الملك، قال: سمعْت عبدالرَّحمن بن أحمد، حدثنا أبي ... فذَكَرَها، وفيها: ثم قَالُوا: قد أطْلَقَكَ الله، فلا يُمكننا أن نُقَيِّدَك. فزَوَّدُوني، وبَعَثُوا بي[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٩٠.

● قال الخطيب: أخبرنا عمر بن إبراهيم، وأبو محمد الخلال، قالوا: حدثنا إسماعيل ابنُ محمد بن إسماعيل الكاتب، حدثنا أحمد بنُ الحسن المقرىء، سمعت عبدالله بن أحمد الدُورقي، سمعتُ محمد بن علي بن الحسن بن شَقيق، سمعتُ أبي قال: كان ابن المبارك إذا كان وقتُ الحجّ، اجتمع إليه إخوانه من أهل مَرْو، فيقولون: نَصحبُك، فيقول: هاتوا نفقاتِكم، فيأخذ نفقاتهم، فيجعلُها في صندوق، ويُقْفِل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مَرْو إلى بغداد، فلا يزال يُنفق عليهم، ويطعمهم أطيبَ الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يُخرجهم من بغداد بأحسن زيٍّ وأكمل مُروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالُك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفها؟ فيقول: كذا وكذا، ثم يُخرجهم إلى مكة، فإذا قَضَوْا حجَّهم، قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالُك أن تشتري لهم مِن متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم، ثم يُخرجهم من مكَّة، فلا يزال يُنفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فيجصِّصُ بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمةً وكساهم، فإذا أكلوا وسرّوا، دعا بالصندوق، ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صُرَّته، عليها اسمه[1].

● وعن زَيْد بن أسلم، عن أبيه، قال: قال ابنُ عُمر: يا أبا خالد[2]، إني أرى أمير المؤمنين يلزَمُك لزوماً لا يَلزمُهُ أحداً من أصحابك، لا يخرُجُ سَفراً إلا وأنت معه، فأخبرني عنه. قال: لم يكن أولى القوم بالظِّلِّ، وكان يُرحِّل رواحلنا، ويرحِّل رَحْلَهُ وحده، ولقد فرغنا ذاتَ ليلة وقد رحَّل رحالنا، وهو يُرحِّل رحْله ويرتجز:

لا يأخذ اللَّيْلُ عَلَيْك بالهَمْ ... والبَسَنْ له القَميصَ واعْتَمْ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣٨٦،٣٨٥/٨.

(٢) أبو خالد هو أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وكُـنْ شَريـك نافعٍ وأَسْلِـمْ   واخدُم الأقْوام حتَّى تُخْـدمْ[1]

● وعن مصعب بن أحمد بن مصعب قال: قدِم أبو محمد المروزي إلى بغداد يريد مكة، وكنت أحب أن أصحبه، فأتيته واستأذنته في الصحبة فلم يأذن لي في تلك السنة. ثم قدِم سنةً ثانية وثالثة فأتيته فسلمت عليه وسألته فقال: اعزم على شرْطٍ: يكون أحدنا الأمير لا يخالفه الآخر. فقلت أنت الأمير. فقال: لا بل أنت فقلت: أنت أسنُ وأولى. فقال: فلا تعصني. فقلت: نعم. فخرجت معه وكان إذا حضر الطعام يُؤثرني فإذا عارضته بشيءٍ قال: ألم أشرط عليك أن لا تخالفني؟ فكان هذا دَأبنا حتى ندمت على صحبته لما يُلحق نفسه من الضُّرر.

فأصابنا في بعض الأيام مطر شديد ونحن نسير فقال لي: يا أبا أحمد اطلب الميل[2]. ثم قال لي: اقعد في أصله فأقعدني في أصله وجعل يديه على الميل وهو قائم قد حنا علىّ، وعليه كساءٌ قد تَجَلل به يُظِلّني من المطر حتى تَمَنّيْتُ أنّي لم أخرج معه لما يُلحق نفسه من الضرر. فلم يزل هذا دَأبَه حتى دخل مكة رحمة الله عليه[3].

● وروى بلال بن سعد عمن رأى عامر بن عبدالله التميمي بأرض الروم وله بغلة يركبها عقبة[4] ويحمل المهاجرين عقبة، قال بلال: كان إذا فصل غازيا يتوسّم من يرافقه، فإذا رأى رفقة تعجبه اشترط عليهم أن يخدمهم، وأن يؤذن، وأن يُنفق عليهم طاقته[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٩٩/٤. قلت: يرحم الله عمر بن الخطاب فلم يكن يكتفي ببر أصدقائه فحسب بل ببر مواليه ويخدمهم في السفر وهم المكلفون بخدمته.

(٢) اطلب الميل: اذهب إلى أقرب ميل. والميل هو: حجر قائم يبنى للمسافر ـ ولا سيما في طريق مكة ـ للاهتداء به وإدراك المسافة، وبين كل ميل وآخر مقدار مدى البصر.

(٣) صفة الصفوة: ١٤٨/٤،١٤٩.

(٤) عقبة: نوبة.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء: ١٧/٤.

□ ٢١ـ السلف وحقوق الخلق □

• قال الواقدي: حدثني أبو بكر بنُ أبي سَبْرَة، عن عبدالمجيد بن سُهيل، عن عوف ابن الحارث: سمعتُ عائشة تقول: دعتني أمُّ حبيبةَ عند موتها، فقالت: قد كان يكون بَيْنَنا ما يكونُ بَين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك. فقلتُ: غفر الله لك كلَّه وحلَّلَكِ من ذلك، فقالت: سررتني سرَّك الله، وأرسلت إلى أمِّ سلمة، فقالتْ لها مثلَ ذلك[1].

• وقال اللَّيثُ بنُ سعد وغيرُه: كتبَ رجلٌ إلى ابنِ عُمر أن اكتُبْ إليَّ بالعلم كله. فكتب إليه: إنَّ العلم كثير، ولكن إن استطعتَ أنْ تَلْقَى الله خفيفَ الظَّهرِ من دماء الناسِ، خمِيص البطنِ من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمرِ جَمَاعتَهم، فافعل[2].

• وعن عمر بن ذَرٍّ، حدَّثني عطاء بن أبي رباح، قال: حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبدالعزيز أنها دخلت عليه، فإذا هو في مُصَلَّاه يدُهُ على خدِّه، سائلة دموعه، فقلتُ: يا أمير المؤمنين! ألشيءٍ حدث؟ قال: يا فاطمةُ! إني تقلَّدت أمْر أمَّة محمد ﷺ، فتفكَّرتُ في الفقير الجائع، والمريضِ الضائع، والعاري المجهودِ، والمظلوم المقهُور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته، فرَحِمتُ نفسي فبكيت[3].

• وعن موسى بن عقبة قال: لما ولي عياض بن غنم قدم عليه نفر من أهل بيته يطلبون صلته فلقيهم بالبِشْر وأنزلهم، وأكرمهم. فأقاموا أياماً ثم كلموه

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٢٢٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٢٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥/١٣١، ١٣٢.

في الصلة وأخبروه بما لقوا من المشقة في السفر رجاء صلته. فأعطى كل رجل منهم عشرة دنانير وكانوا خمسة فردّوها وتسخّطوا ونالوا منه. فقال: أيّ بَني عَمّ والله ما أنكر قرابتكم ولا حقكم ولا بُعْد شقّتكم، ولكن والله ما حصلتُ إلى ما وصلتكم به إلا ببيع خادمي وببيع مالا غِنى بي عنه فاعذروني. قالوا: والله ما عذَرك الله فإنك والي نصف الشام وتعطي الرجل منا ما جهْده أن يبلّغه إلى أهله؟ قال: فتأمرونني أسرق مال الله؟ فوالله لأن أشق بالمنشار أحب إلي من أن أخون فلساً أو أتعدى. قالوا: قد عذرناك في ذات يدك فولنا أعمالاً نؤدي ما يؤدي الناس إليك ونصيب من المنفعة ما يصيبون، وأنت تعرف حالنا وإنا ليس نعدو ما جعلت لنا. قال: والله إني لأعرفكم بالفضل والخير ولكن يبلغ عمر أني وليت نفراً من قومي فيلومني. قالوا فقد ولاك أبو عبيدة وأنت منه في القرابة بحيث أنت فأنفذ ذلك عمر، فلو وليتنا لأنفذه قال: إني لست عند عمر كأبي عبيدة. فمضوا لائمين له[1].

• وقال سُليمان التَيْميّ، قال الأحنف: ثلاثٌ فيَّ ما أَذْكُرُهُنَّ إلا لِمُعْتبرٍ، ما أتيتُ بابَ السلطان إلا أن أُدعَى، ولا دخلتُ بين اثنين حتى يُدْخلاني [بينهما]، وما أذكر أحداً بعدَ أنْ يقومَ من عندي إلا بخَير[2].

• وعنه: ما نازَعني أحدٌ إلا أخذتُ أمري بأمور، إنْ كان فوْقي، عرفتُ له، وإنْ كان دوني رفعتُ قدري عنه، وإنْ كان مثلي، تفضَّلْتُ عليه. وعنه، قال: لستُ بحليم ولكنّي أتحالم[3].

• وقال الأصمعيّ: عن معتمر بن حيّان، عن هشام بن عُقْبة أخي ذي الرُّمّة، قال: شهدتُ الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قومٍ في دم، فتكلّمَ فيهِ، وقال: احتكِموا. قالوا: نحتكِم دِيَتَيْن قال: ذاك لكم. فلمّا سكتوا قال: أنا أُعطيكم ما سألتم، فاسمعوا: إنَّ الله قضَى بدِيةٍ واحدةٍ، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ قضَى بديةٍ واحدة، وإنَّ العرب تَعاطَى

---

(١) صفة الصفوة: ٦٦٩/١، ٦٧٠.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٩٢/٤.
(٢) المصدر السابق نفسه.

بينها ديَةً واحدة، وأنتُم اليومَ تُطالِبُون، وأخشىٰ أنْ تكونُوا غداً مطلوبين، فلا نرضىٰ الناسُ منكم إلّا بمثلِ ما سننتُم، قالُوا: رُدَّها إلى دِية[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٩٣.

● عن عقيل، ومعمر، عن الزُّهري، حدّثني عُروة أن المِسْوَرَ بن مَخْرَمة أخبره أنه وَفد على مُعاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مِسور! ما فعل طعنُك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسِن. قال: لا والله، لتكلِّمنّي بذات نفسك بالذي تعيبُ علَيّ. قال مِسْوَر: فلم أترك شيئاً أعيبُه عليه إلا بيَّنتُ له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تَعُدُّ لنا يا مِسْوَرُ ما نلي من الإصلاح في أمر العامَّة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تَعُدُّ الذنوبَ، وتتركُ الإحسان؟ قال: ما تذكر إلا الذنوب. قال مُعاويةُ: فإنا نعترفُ لله بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يا مسورُ ذنوبٌ في خاصتك تَخشَىْ أن تُهلكك إن لم تُغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقَّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أُخيَّر بين أمرين بين الله وبين غيره، إلا اخترتُ الله على ما سواه، وإني لعلى دينٍ يُقبل فيه العملُ ويُجزىٰ فيه بالحسنات، ويُجزىٰ فيه بالذنوب إلا أنْ يعفو الله عنها. قال: فخصمني. قال عُروةُ: فلم أسمع المِسْوَر ذكر مُعاوية إلا صلَّى عليه[1].

● وعن ميمون بن مهران قال: سمعت ابن عباس يقول: ما بلغني عن أخٍ مكروهٌ قطّ إلا أنزلْته إحدى ثلاث منازل: إن كان فوقي عرفتُ له قدْره، وإن كان نظيري تفضّلت عليه، وإن كان دوني لم أحفل به. هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها فأرضُ الله واسعة[2].

● وعن حُميد الطويل، عن أبي قلابة قال: إذا بلغك عن أخيك شيءٌ تكرهه فالتمس له العذْر جُهدَك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/١٥٠، ١٥١. وقوله: (صلى عليه) أي: دعا له.

(٢) صفة الصفوة: ١/٧٥٤.

(٣) صفة الصفوة: ٣/٢٣٨.

• ويُروى عن رجاء بن حَيْوَة، قال: مَنْ لَمْ يؤاخِ إلا مَنْ لا عَيْبَ فيه قَلَّ صديقُه؛ ومَنْ لَمْ يَرضَ مِنْ صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطُهُ، ومَنْ عاتب إخوانه على كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عدوُّه[1].

• وعن أبي يعقوب المدَني قال: كان بين حسَن بن حسَن وبين علي بن الحسين بعضُ الأمر. فجاء حسَن بن حسَن إلى علي بن الحسين وهو مع أصحابه في المسجد. فما ترك شيئاً إلا قاله له. قال: وعليٌّ ساكت. فانصرف حسَن فلما كان في الليل أتاه في منزله فقرَع عليه بابه فخرج إليه فقال له علي: يا أخي إن كنت صادقاً فيما قلتَ لي فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفَر الله لك، السلام عليكم. وولّى. قال: فاتَّبعه حسن فالتزمه من خلفه وبكى حتى رثى له ثم قال: لا جَرم لا عُدتُ في أمرٍ تكرهه. فقال علي: وأنت في حِلّ مما قلتَ لي[2].

• وعن سفيان بن عيينة قال: قال سعيد بن المسيب: إن الدنيا نذالة، هي إلى كل نذلٍ أَميل، وأنذل منها من أخذها بغير حقّها، وطلبَها بغير وجهها ووضَعها في غير سبُلها. وعن مالك بن أنس قال: قال سعيد بن المسيب: إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيْبٌ ولكنْ مِن الناس مَن لا ينبغي أن تُذكَر عيوبه: مَن كان فضلُه أكثر من نقصِه وُهِب نقصُه لفضله[3].

• وقال الذهبي في ترجمته لقتادة بن دعامة السدوسي: وهو حجة بالإجماع إذا بيَّن السماع، فإنه مُدلِّس معروف بذلك، وكان يرى القدر، نسأل الله العفوّ. ومع هذا فما توقف أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعلَّ الله يعْذُرُ أمثالَه ممن تلبس ببدعةٍ يُريد بها تعظيمَ الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يُسأل عما يفعل. ثم إنَّ الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥٥٨/٤.
(٢) صفة الصفوة: ٩٤/٢.
(٣) صفة الصفوة: ٨١/٢.

صوابُه، وعُلِمَ تحرِّيه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرِف صلاحُه وورعه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك[1].

• وعن ابن المديني، سمعت سفيان يقول: كان ابن عياش المَنْتُوف يقع في عمر بن ذَرّ ويشتمه. فلقيه عمر، فقال: يا هذا لا تفْرِطْ في شتمنا، وأبْقِ للصلح موضعاً، فإنا لا نُكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه[2].

• وروى عبدان بن عثمان، عن عبدالله بن المبارك قال: إذا غَلَبَتْ محاسِنُ الرجل على مساوئه لم تُذكر المساوىء، وإذا غلبت المساوىءُ على المحاسن لم تُذكر المحاسن[3].

• وقال يونس الصَّدَفيُّ: ما رأيتُ أعقل من الشافعي، ناظرتُه يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة[4].

• وعن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لي الشافعي: يا يونس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن القه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا واحذر أن تسمي له المبلغ فإن أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبر لاتزيدن على ذلك شيئاً وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهاً لعذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهاً لعذر وضاق عليك المسلك فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار؛ إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة وإن شئت عفوت عنه والعفو

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٧١/٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣٨٩،٣٨٨/٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣٩٨/٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٦/١٠.

أقرب للتقوى وأبلغ في الكرم لقول الله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[1] فإن نازعتك نفسك بالمكافأة فأفكر فيما سبق له لديك من الاحسان فعدها ثم ابدر[2] له إحساناً بهذه السيئة، ولا تبخسن باقي إحسانه السالف بهذه السيئة فإن ذلك الظلم بعينه يا يونس إذا كان لك صديق فشد يديك به فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل[3].

● وقال الذهبي في ترجمته لصاحب الأندلس الناصر لدين الله: وقد كنتُ ذكرتُ ترجَمَتَه مع جدِّهم، فأعدتُها بزوائدَ وفوائد، وإذا كان الرأس عاليَ الهِمَّة في الجهاد، احتُمِلت له هَنَات، وحسابه على الله، أما إذا أمات الجهاد، وظلمَ العِبَاد، وللخزائن أباد، فإنَّ ربَّك لبالمرصاد[4].

● وقال أبو الرُّبيع محمَّد بن الفَضْل البَلْخي: سمعتُ أبا بكر محمَّد بن مَهْرَوَيْه الرَّازي، سَمعتُ علي بن الحُسَين بن الجُنَيْد، سمعتُ يحيى بن مَعين يقول: إنَّا لنطْعَنُ على أقوام، لعلَّهم قد حَطُّوا رِحَالهم في الجنَّة، مِن أكثر من مِئتَي سَنَة.

قلت: ـ [القائل هو الذهبي] ـ لَعَلُّها من مئة سَنة، فإنَّ ذلكَ لا يبلُغُ في أيام يحيى هذا القَدْر.

قال ابنُ مَهْرَوَيْه: فَدَخلْتُ على عبد الرَّحمن بن أبي حاتم، وهو يقرأ على النَّاس كتاب: «الجرْح والتَّعْديل»، فحدَّثْته بهذا، فبكى، وارتَعَدَتْ يَدَاه، حتى سقط الكتاب، وجعلَ يبكي، ويَستَعيدُني الحِكاية.

قلتُ: [القائل هو الذهبي] ـ أصابَه على طَرِيق الوَجَل وخوف العَاقبة، وإلَّا فَكَلَام النَّاقد الوَرِع في الضعفاء من النصح لدين الله، والذبِّ عن السنة[5].

● وقال الذهبي في ترجمته لمحمد بن أحمد بن يحيى العثماني الشافعي الأشعري:

---

(١) سورة الشورى: آية ٤٠.

(٢) ابدر له: عاجله.

(٣) صفة الصفوة: ٢/٢٥٢،٢٥٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٥/٥٦٤.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٦٨.

قلت: غلاةُ المُعتزلة، وغلاةُ الشيعة، وغُلاةُ الحنابلة، وغُلاةُ الأشاعرة، وغُلاةُ المُرجِئة، وغُلاةُ الجهميّة، وغُلاةُ الكرّامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثُروا، وفيهم أذكياءٌ وعُبّادٌ وعُلماء، نسألُ الله العفوَ والمغفرة لأهلِ التوحيد، ونبرَأ إلى الله من الهوىٰ والبِدَع، ونُحِبُّ السُّنَّة وأهلَها، ونُحِبُّ العالِمَ على ما فيه من الاتباع والصفاتِ الحميدة، ولا نُحِبُّ ما ابتدع فيه بتأويلٍ سائغ، وإنما العِبْرَةُ بكثرة المحاسن[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٤٥، ٤٦.

□ ٢٣ـ السلف والأدب مع العلماء □

• عن أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلاً قد أسبل، فقال: ارفع إزارك، فقال: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك، قال: إنّ بساقيّ حُمُوشَةً وأنا أؤمُّ الناس. فبلغ ذلك عمر، نجعل يضرب الرجل، ويقول: أتردُّ على ابن مسعود؟[1].

• وعن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، أن ابنَ عباس قام إلى زيد بن ثابت. فأخذ له بركابِهِ، فقال: تَنَحَّ يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ! فقال: إنّا هكذا نفعلُ بعلمائنا وكبرائنا[2].

• وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: كان عطاء بن أبي رباح عبداً أسوداً لامرأة من أهل مكة وكان أنفه كأنه باقلاّة[3] قال: وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلي فلما صلى انفتل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حوّل قفاه إليهم. ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما فقال: يا ابنيّ لاتنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلّنا بين يدي هذا العبد الأسود[4].

• وعن عمر بن مُدْرِك: حدثنا القاسم بن عبدالرحمن، حدثنا أشعث بن شعبة المصيِّصي، قال: قَدِمَ الرشيد الرَّقة، فانجفل الناسُ خلفَ ابن المبارك، وتقطعت النِّعالُ، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أمُّ ولد لأمير المؤمنين من [بُرج من] قصر الخشب، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خُراسان، قَدِمَ. قالت: هذا والله المُلْكُ، لا ملكُ هارون الذي لا يجمع الناسَ إلا بِشُرَط وأعوانٍ[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٩١/١، ٤٩٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٣٧/٢.
(٣) الباقلاه: واحدة الباقلاء وهي الفول.
(٤) صفة الصفوة: ٢١٢/٢.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٣٨٤/٨.

● وقال رُسْتَه: سمعتُ عبدالرحمن بن مهدي يقول: كان يُقالُ: إذا لقِيَ الرجلُ الرجل فوقه في العلم، فهو يَوْمُ غنيمته، وإذا لقِي مَنْ هو مِثْله، دارَسَهُ، وتعلَّم منه، وإذا لقي مَنْ هو دونه، تواضَعَ له، وعلَّمه، ولا يكونُ إماماً في العلم من حدَّثَ بكُلِّ ما سمع، ولا يكونُ إماماً من حدَّثَ عن كُلِّ أحد، ولا من يحدثُ بالشاذ، والحِفْظُ للإتقان[1].

● وقال ابن بَشْكُوال في أخبارِ إبراهيم الحَرْبي: نقلتُ من كتابِ ابن عتَّاب: كانَ إبراهيم الحَرْبي رجُلاً صَالحاً من أهلِ العِلم، بَلَغَهُ أن قوماً من الذين كانُوا يجالسُونه يُفضِّلُونه على أحمد بن حَنْبل، فَوَقَفَهم على ذلك، فأقرُّوا به، فقال: ظلَمْتُموني بتفضيلكم لي على رَجُل لا أُشبِهُهُ، ولا ألحقُ به في حالٍ من أحوالِهِ، فأقسِمُ بالله، لا أُسْمِعُكم شيئاً من العِلم أبداً، فلا تأتوني بعد يومِكم[2].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠٣/٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣٦٤/١٣.

□ ٢٤ـ السلف وآداب الكلام واللسان □

● عن ميمون بن مهران قال: جاء رجل إلى سلمان[1] فقال أوصني قال لا تكلَّمْ. قال: لا يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم. قال: فإن تكلمت فتكلم بحق أو اسكتْ قال: زدني. قال: لا تغضب قال: إنه ليغشاني ما لا أملكه. قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك. قال زدني: قال: لا تلابس الناس. قال: لا يستطيع من عاش في الناس أن لا يلابسهم. قال: فإن لابستهم فاصدق الحديث وأدِّ الأمانة[2].

● وعن معاذ بن سعيد قال: كنا عند عطاء بن أبي رباح فتحدث رجل بحديث فاعترض له آخر في حديثه فقال عطاء: سبحان الله ما هذه الأخلاق؟ ما هذه الأخلاق؟ إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم منه به فأريه أنى لا أحسن منه شيئاً[3].

● وعن عثمان بن الأسود قال: قلت لعطاء: الرجل يمرّ بالقوم فيقذفه بعضهم، أيخبره؟ قال: لا، المجالس بالأمانة[4].

● وعن خلف بن تميم: حدّثنا عبدالله بن محمد، عن الأوزاعي قال: كتب إلينا عُمر بن عبدالعزيز رسالةً، لم يحفظها غيري وغيرُ مكحول: أمّا بعدُ، فإنّه مَنْ أكثر ذِكْرَ الموتِ، رضيَ مِن الدنيا باليسير، ومَنْ عدَّ كلامَه مِنْ عمَلِهِ، قلَّ كلامُه إلا فيما ينفعُه والسلام[5].

● وعن يعلى بن عبيد قال: دخلنا على محمد بن سوقة فقال: أحدثكم بحديث لعله ينفعكم فإنه قد نفعني ثم قال: قال لنا عطاء بن أبي رباح يا بني أخي إن من

---

(١) هو سلمان الفارسي الصحابي الجليل.
(٢) صفة الصفوة: ٥٤٩/١.
(٣) صفة الصفوة: ٢١٤/٢.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١٣٣/٥.

كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضوله ما عدا كتاب الله عز وجل أن تقرأه وتأمر بمعروف أو تنهى عن منكر أو تنطق بحاجتك في معيشك التي لابد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد؟ أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته التي أملّ[1] صدرَ نهاره فإن أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه[2].

● وقال فيض بن وثيق: سمعت الفضيل يقول: إن استطعت أن لا تكون محدِّثاً ولا قارئاً، ولا متكلِّماً، إن كنت بليغاً قالوا: ما أبلغه، وأحسَنَ حديثه، وأحسنَ صوته، فيُعجبك ذلك، فتنتفخ، وإن لم تكن بليغاً، ولا حسنَ الصوت، قالوا: ليس يُحسن يُحدِّث، وليس صوته بحسن، أحزنك ذلك، وشقَّ عليك، فتكون مرائياً، وإذا جلست، فتكلمت، فلم تُبَالِ مَنْ ذمَّك ومَن مدحك، فتكلَّمْ[3].

● وقيل للفضيل بن عياض: ما الزُّهد؟ قال: القُنوع، قيل: ما الوَرَعُ؟ قال: اجتنابُ المحارم. قيل: ما العِبادة؟ قال: أداءُ الفرائض. قيل ما التواضع؟ قال: أن تخضع للحق. وقال: أشد الورع في اللسان.

[قال الذهبي]: هكذا هو، فقد ترى الرجلَ ورعاً في مأكله وملبسه ومعاملته، وإذا تحدَّث يدخل عليه الداخلُ من حديثه، فإما أن يتحرَّى الصدق، فلا يكمل الصدق، وإما أن يصدق، فينمق حديثه ليُمدَح على الفصاحة، وإما أن يُظهر أحسنَ ما عنده ليعظم، وإما أن يسكُت في موضع الكلام، ليُثنَى عليه. ودواءُ ذلك كله الانقطاعُ عن الناس إلا من الجماعة[4].

● وقال أحمد بن [أبي] الحَوَاري: حدثنا أبو عبدالله الأنطاكي قال: اجتمع الفضيل والثوريُّ، فتذاكرا، فَرَقَّ سفيانُ وبكى، ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلسُ علينا

---

(١) أي: أملاها.

(٢) صفة الصفوة: ٢/٢١٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٣٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٣٤.

رحمة وبركة. فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبدالله أخاف أن لا [يكون] أضرُّ علينا منه. ألست تخلّصت إلى أحسن حديثك، وتخلّصتُ أنا إلى أحسن حديثي، فتزيّنْت لي وتزينتُ لك؟ فبكى سفيان، وقال: أحييتني أحياك الله[1].

● وعن أبي بكر بن عياش قال: أدنى نفع السكوت السلامةُ، وكفى به عافية، وأدنى ضررِ المنطق الشهرةُ، وكفى بها بليّةً[2].

● وعن عباية بن كليب قال: سمعت ابن السماك يقول: سَبعك بين لحيَيك تأكل به كل من مرّ عليك، قد آذيت أهل الدور في الدّور حتى تعاطيت أهل القبور، فما ترثي لهم وقد جرى البلى عليهم، وأنت هاهنا تنبشهم، إنما نرى أن نبشهم أخذُ الخرق عنهم، إذا ذكرت مساويهم فقد نبشتهم، إنه ينبغي لك أن يدلّكَ على ترك القول في أخيك ثلاث خلال: أما واحدة فلعلك أن تذكره بأمر هو فيك فما ظنك بربك إذا ذكرت أخاك بأمر هو فيك؟ ولعلك تذكره بأمرٍ، فيك أعظَم منه، فذلك أشدّ استحكاماً لمقته إياك، ولعلك تذكره بأمر قد عافاك الله منه فهذا جزاؤه إذ عافاك. أما سمعت: ارحم أخاك واحمد الذي عافاك؟[3].

● وقال بكر بن منير: سمعتُ أبا عبدالله البخاري يقولُ: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنّي اغتبتُ أحداً.

[قال الذهبي]: صَدق رحمه الله، ومن نظر في كلامِهِ في الجرح والتعديل علم وَرعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يُضعّفُه، فإنه أكثر ما يقولُ: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا. وقلّ أن يقول: فلانٌ كذّاب، أو كان يضعُ الحديث. حتى إنه قال: إذا قلتُ فلان في حديثه نظر، فهو متّهم واهٍ. وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحداً. وهذا هو والله غايةُ الورع[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٥٠١.
(٣) صفة الصفوة: ٣/١٧٦.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٣٩، ٤٤١.

• وعن [سهل بن عبدالله التستري] قالَ: من أخلاقِ الصِّدِّيقين أنْ لا يَحلِفُوا بالله، وأنْ لا يَغْتَابُوا، ولا يُغْتَابَ عندَهم، وأن لا يَشْبَعوا، وإذا وَعَدُوا لم يُخْلِفوا، ولا يَمْزَحون أصلاً[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٣٣٢/١٣.

▢ ٢٥ـ السلف وحفظ الوقت[*] ▢

● روى الأعمش: عمن حدثه قال: قال عبدالله بن مسعود: لو سَخِرْتُ مِن كلب، لخشيتُ أن أكون كلباً، وإني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في عمل آخرة ولا دنيا[١].

● وعن الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ قال: «ابنَ آدم إنما أنت أيام؛ كلما ذهب يوم ذهب بعضك»[٢].

● وعن الحسن أيضاً قال: «أدركت أقواماً كل أحدهم أشح على عمره منه على درهمه»[٣].

● ومن كلام الحسن أيضاً في موعظة لأصحابه يزهدهم بها في الدنيا ويرغبهم في الآخرة قوله: «ولا يلهينك المتاع القليل الفاني، ولا تربص بنفسك فهي سريعة الانتقاص من عمرك، فبادر أجلك، ولا تقل غداً غداً فإنك لا تدري متى إلى الله تصير»[٤].

● ومن جميل كلام الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ ضمن كتاب طويل كتبه إلى عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ قوله: لأصفن لك الدنيا ساعة بين ساعتين، ساعة ماضية، وساعة آتية، وساعة أنت فيها. فأما الماضية والباقية

(*) وقع لنا في هذا الفصل كلام جيد لم نجده في السير ولا في صفة الصفوة فدفعنا الحرص على ألا يفوت القارئ الكريم نفعه إلى أن نذكره مخالفين شرطنا في الاقتصار على الكتابين السابقين.

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٩٦/١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥٨٥/٤.

(٣) شرح السنة للبغوي: ٢٢٥/١٤.

(٤) حلية الأولياء: ١٤٠/٢.

فليس تجد لراحتهما لذة، ولا لبلائهما ألما. وإنما الدنيا ساعة أنت فيها فخدعتك تلك الساعة عن الجنة وصيرتك إلى النار، وإنما اليوم إن عقلت ضيف نزل بك وهو مرتحل عنك، فإن أحسنت نزله وقِراه شهد لك وأثنى عليك بذلك وصدق فيك، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قِراه جال في عينيك. وهما يومان بمنزلة الأخوين نزل بك أحدهما فأسأت إليه ولم تحسن قراه فيما بينك وبينه، فجاءك الآخر بعده فقال إني قد جئتك بعد أخي فإن إحسانك إليَّ يمحو إساءتك إليه، ويغفر لك ما صنعت فدونك إذ نزلت بك وجئتك بعد أخي المرتحل عنك فلقد ظفرت بخلف منه إن عقلت، فدارِكْ ما قد أضعت. وإن ألحقت الآخر بالأول فما أخلقك أن تهلك بشهادتهما عليك. إن الذي بقي من العمر لا ثمن له ولا عدل، فلو جمعت الدنيا كلها ما عدلت يوما بقي من عمر صاحبه، فلا تبع اليوم ولا تعدله من الدنيا بغير ثمنه، ولا يكونن المقبور أعظم تعظيماً لما في يديك منك وهو لك، فلعمرى لو أن مدفونا في قبره قيل له هذه الدنيا أولها إلى آخرها تجعلها لولدك من بعدك يتنعمون فيها من ورائك، فقد كنت وليس لك همٌّ غيرهم، أحب إليك أم يوم تترك فيه تعمل لنفسك لاختار ذلك، وما كان ليجمع مع اليوم شيئاً إلا اختار اليوم عليه رغبة فيه وتعظيما له، بل لو اقتصر على ساعة خُيِّرَها[1] وما بين أضعاف ما وصفت لك وأضعافه يكون لسواه إلا اختار الساعة لنفسه على أضعاف ذلك يكون لغيره بل لو اقتصر على كلمة يقولها تكتب له وبين ما وصفت لك وأضعافه لاختار الكلمة الواحدة عليه، فانتقد اليوم لنفسك وأبصر الساعة وأعظم الكلمة واحذر الحسرة عند نزول السكرة، ولا تأمن أن تكون لهذا الكلام حجة نفعنا الله وإياك بالموعظة، ورزقنا وإياك خير العواقب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[2].

● وقال الرُّقام: سألتُ عبدَ الرَّحمن ـ [يعني ابن أبي حاتم] ـ عن اتفاق كَثْرَة السَّمَاع له، وسُؤالاته لأبيه، فقال: رُبَّما كان يأكل وأقرأ عليه، ويَمشي وأقرأ عليه، ويَدْخُل الخلاء وأقرأ عليه، ويَدْخُل البيتَ في طلب شيءٍ وأقرأ عليه[3].

---

(١) أي خُيِّر بينها وبين أضعاف ما وصف يكون لغيره من أحبابه.

(٢) حلية الأولياء: ١٣٩/٢ وبداية كتاب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز من صفحة ١٣٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٥١/١٣.

• وقال الرَّازي: وسَمِعْتُ علي بن أحمد الخُوَارِزْمِي يقول: سمعتُ عبدالرَّحمن ابن أبي حَاتم يقول: كنَّا بمصر سَبْعَةَ أشهر، لم نأكل فيها مَرَقَةً، كلُّ نَهَارِنا مُقَسَّم لمجالس الشُّيُوخ، وباللَّيل: النَّسْخ والمقابَلة. قال: فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالُوا: هو عَليل، فَرَأَيْنا في طَريقنا سَمَكاً أعجبنا، فاشتريناه، فلمَّا صرنا إلى البيت، حَضَر وقتُ مَجلِسٍ، فلم يمكنا إصلاحه، ومضَيْنا إلى المجلِسِ، فلم نَزَلْ حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلْناه نِيْئاً، لم يكن لنا فَراغٌ أن نُعْطِيَه مَن يَشْويه. ثم قال: لا يُسْتَطاع العِلم بِرَاحَةِ الجَسَد[1].

• وقال القاسم بن عساكر عن سُليم بن أيوب: حُدِّثْتُ عنه أنه كان يحاسِبُ نفسَه في الأنفاس، لا يَدَعُ وقتاً يَمضي بغير فائدة، إمّا ينسَخُ، أو يُدَرِّسُ، أو يَقْرأ. وحُدِّثتُ عنه أنه كان يُحرِّكُ شفتيه إلى أن يقُطَّ القلمَ[2].

• ويحكى أبو الوفاء على بن عقيل عن نفسه فيقول: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين»[3].

• ويقول أيضاً: «وأنا أقصِّرُ بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سَفَّ الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها»[4].

• ورحم الله الوزير الفقيه يحيى بن محمد بن هُبيرة ـ شيخ ابن الجوزي ـ،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٦٦/١٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٦٤٦/١٧.

(٣) المنتظم لابن الجوزي: ٢١٤/٩ نقلاً عن سوانح وتأملات في قيمة الزمن لخلدون الأحدب ص ٣٤.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ١٧٧/١ نقلاً عن سوانح وتأملات في قيمة الزمن ص ٣٤.

والوقتُ أنفسُ ما عُنيت بحفظه وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ[1]

● ومما ذكرابن النفيس ـ شيخ الطب في زمانه ـ أنه كان رحمه الله «إذا أراد التصنيف، توضع له الأقلام مبريةً، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السَّيل إذا انحدر، فإذا كَلَّ القلم وحَفِي، رمى به وتناول غيره، لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم .. ودخل الشيخ علاء الدين ـ يعني ابن النفيس ـ مرة إلى الحمّام الذي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مَسْلَخ الحمام[2]، واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النَّبْض إلى أن أنهاها، ثم عادَ ودخل الحمّام وكمَّل تغسيله»[3].

● ويقول ابن الجوزي عن نفسه رحمه الله: «لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس ومالا يعني، ويتخلله غيبة.

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوَّق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلبت قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ١/٢٨١ نقلاً عن سوانح وتأملات في قيمة الزمن ص ٣٩.

(٢) مسلخ الحمام: هو موضع نزع الثياب.

(٣) روضات الجنات للخوانساري: ٥/٩٠-٩٣ نقلاً عن سوانح وتأملات ... ص ٣٧.

ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعدّ للقائهم قطع الكاغد[1]، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي»[2].

* * *

(١) الكاغد: الورق المعد للكتابة.

(٢) صيد الخاطر: ص ١٨٤،١٨٥.

□ ٢٦ـ السلف والاعتدال في الضحك والمزاح □

● عن أنس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله احملني. قال النبي ﷺ: «إنا حاملوك على ولد ناقة». قال: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال النبي ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق؟»[1].

● وعن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر فقال: «اذن فكل» فأخذت آكل من التمر فقال النبي ﷺ: «تأكل تمراً وبك رمد؟» قال، فقلت: إني أمضغ من ناحية أخرى. فتبسم رسول الله ﷺ[2].

● وعن أسيد بن حضير قال: بينما هو يحدث القوم - وكان فيه مزاح - بيْنا يضحكهم فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود فقال: أصبرني[3] فقال: «اصطبر». قال: إن عليك قميصاً وليس على قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه؛ قال: إنما أردت هذا يا رسول الله[4].

● وعن معاوية بن بهز قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له، ويل له»[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في الأدب ـ ٩٢ باب ما جاء في المزاح ح ٤٩٩٨ (٥/٢٧٠) وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣/٩٤٣ رقم ٤١٨٠).
وأخرجه الترمذي في البر ـ ٥٧ باب ما جاء في المزاح ح ١٩٩٢ (٦/٢٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجة في الطب ـ ٣ باب الحمية ح ٣٤٤٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ٢/٢٥٣ رقم ٢٧٧٦).

(٣) أي أقدني ومكني من القصاص منك.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب ـ ١٦٠ باب في قبلة الجسد ح ٥٢٢٤ وصححه الألباني (صحيح أبي داود ٣/٩٨٠ رقم ٤٣٥٢).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب ـ ٨٨ باب في التشديد في الكذب ح ٤٩٩٠. وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣/٩٤٢ رقم ٤١٧٥).

● وعن أبي هريرة قال: قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقاً»[1].

● وقال محمد بن النعمان بن عبد السلام: لم أر أعبد من يحيى بن حماد، وأظنه لم يضحك. قال الذهبي تعليقاً على ذلك: «الضحكُ اليسيرُ والتبسُّمُ أفضلُ، وعدمُ ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكونُ فاضِلاً لمن تركَهُ أدباً وخوفاً من الله، وحُزناً على نفسه المسكينة.

والثاني: مذمومٌ لمن فعله حمقاً وكِبْراً وتصنُّعاً، كما أنَّ مَنْ أكثرَ الضحكَ استُخِفَّ به، ولا ريبَ أن الضحكَ في الشبابِ أخفُّ منه وأعذرُ منه في الشيوخ.

وأما التبسُّمُ وطلاقةُ الوجه فأرفعُ من ذلك كلِّه، قال النبيُّ ﷺ: «تبسُّمكَ في وجه أخيك صَدَقةٌ»[2]، وقال جريرٌ: ما رآني رسولُ الله ﷺ إلا تبسَّم[3]. فهذا هو خلقُ الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكّاءً بالليل، بسّاماً بالنهار. وقال عليه السلام: «لنْ تَسَعوا النّاسَ بأمْوالِكُم، فَلْيَسَعْهُم مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْهِ»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبوب البر والصلة ـ ٥٧ باب ما جاء في المزاح ح ١٩٩١ وقال حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد حديث ٨٩١ (فضل الله الصمد ٣٣٧/٢)، والترمذي في البر باب ما جاء في صنائع المعروف ح ١٩٥٧ وحسنه (١٨٨/٦).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد باب من لا يثبت على الخيل ح ٣٠٣٥ (فتح الباري: ١٨٧/٦). وفي كتاب الأدب ـ ٦٨ باب التبسم والضحك ح ٦٠٨٩ (فتح الباري ٥١٩/١٠). وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٩ـ باب من فضائل جرير بن عبدالله ح ٢٤٧٥ (١٩٢٥/٤).

(٤) أخرجه البزار: ٤٠٨/٢ ح ١٩٧٧، وأبو نعيم في الحلية ٢٥/١٠، والحاكم في المستدرك: ١٢٤/١ كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي سنده عبدالله ابن سعيد المقبري وهو متروك (تقريب التهذيب ترجمة ٣٣٥٦). وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: عبدالله واه. (المستدرك).

بقي هنا شيءٌ: ينبغي لمن كان ضحوكاً بسّاماً أن يُقصِّر من ذلك، ويلومَ نفسه حتى لا تمجُهُ الأنفس، وينبغي لمن كان عبوساً مُنقبضاً أن يتبسَّم، ويُحسِّن خلقَه، ويمقتَ نفسه على رداءة خُلُقه، وكلُّ انحرافٍ عن الاعتدال فمذمومٌ، ولابدَّ للنفس من مجاهدةٍ وتأديب»[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/١٤٠، ١٤١.

○ وبعد ○

فهذه أحوال السلف وأخلاقهم فما هي أحوالنا وأخلاقنا؟ نعم أين نحن من هذه الأخلاق السامقة الجليلة؟ إن المتأمل لأحوالنا اليوم ليجد بوناً شاسعاً بيننا وبينهم، ولكن المحب لهم يسعى للتأسي بهم ويجاهد نفسه ليقترب من هذه الصفوة المختارة، وعندما يعلم الله سبحانه صدق التوجه في الوصول إلى هذه الأخلاق العظيمة فإنه سبحانه يعين من هذه حاله ويأخذ بيده ويهديه سبيله المستقيم قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[1] ومع أن القصور عن السلف الصالح ملازم لمن جاء بعدهم ولكن حسبنا أنا نحبهم ونجلهم وإن قصرت أخلاقنا وأعمالنا عنهم ونحتسب على الله عز وجل أن يجعلنا معهم ويحشرنا في زمرتهم كما جاء هذا الوعد على لسان رسوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال: أنت مع من أحببت، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[2].

فاللهم إنا نشهدك على حبنا لنبينا محمد ﷺ وصحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان فاللهم ألحقنا بهم واحشرنا في زمرتهم وإن قصرت أعمالنا وأخلاقنا عنهم إنك سميع مجيب.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة ـ ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ح ٣٦٨٨ (فتح الباري: ٥١/٧، ٥٢).

□ قائمة المصادر والمراجع □

• القرآن الكريم

- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثانية - ١٤٠٥.
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن على العسقلاني (ابن حجر). مكتبة ابن تيمية - القاهرة ١٤١١.
- تاريخ الرسل والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف - القاهرة الطبعة الثالثة.
- تقريب التهذيب: أحمد بن على العسقلاني (ابن حجر). تحقيق: محمد عوامة. دار القلم - دمشق الطبعة الثالثة - ١٤١١.
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. دار الجيل - بيروت ط ١٤٠٧.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني. دار الكتاب العربي - بيروت ط ٥ - ١٤٠٧.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي (عبدالرحمن بن الكمال). مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة ١٩٩٠م.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف - الرياض ط ٢ - ١٤٠٧.
- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ومعه معالم السنن للخطابي. تحقيق عزت عبيد دعاس. طبعة محمد على السيد - حمص سوريا ط ١٣٨٨.

- سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق عزت عبيد دعاس. طبعة المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ـ استانبول ـ تركيا.
- سنن الدارمي: أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي ـ تحقيق د. مصطفى ديب البغا ـ دار القلم ـ دمشق ١٤١٢.
- سنن النسائي: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي. مع شرح السيوطي وحاشية السندي. دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.
- سوانح وتأملات في قيمة الزمن: خلدون الأحدب. مكتبة دار الوفاء للنشر والتوزيع ـ جدة الطبعة الثالثة ١٤١٠.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تحقيق شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ٨ ـ ١٤١٢.
- شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش. المكتب الإسلامي بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣.
- شرح العقيدة الواسطية: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، والشرح لمحمد خليل هراس. إدارة إحياء السنة. كوجرانوالة ـ باكستان.
- صحيح البخاري (مع فتح الباري): أبو عبدالله بن إسماعيل البخاري. شرح أحمد بن على بن حجر العسقلاني. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب. دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٤٠٧.
- صحيح سنن ابن ماجة: محمد ناصر الدين الألباني. إشراف زهير الشاويش. مكتب التربية العربي لدول الخليج. الرياض والمكتب الإسلامي ـ بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٨.
- صحيح سنن أبى داود: محمد ناصر الدين الألباني. تعليق محمد زهير الشاويش. مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩.
- صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي) ـ القاهرة.

● صفة الصفوة: أبو الفرج عبدالرحمن بن على بن الجوزى. تحقيق محمود فاخورى ومحمد رواس قلعه جى. دار الوعى ـ حلب ـ الطبعة الأولى ١٣٨٩.
ـ ضعيف سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني. إشراف زهير الشاويش. المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤١٢.
ـ الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٤١٠.
ـ عقيدة السلف وأصحاب الحديث: أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني. تحقيق نبيل سابق السبكى. مؤسسة البشائر العالمية للتجارة والتوزيع ـ الرياض ١٤١٣.
ـ القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى. تحقيق مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة. الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧.
ـ الكامل في التاريخ: أبو الحسن على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير. دار الكتاب العربي ـ بيروت.
ـ المستدرك على الصحيحين: الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري. وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي. دار المعرفة. بيروت.
ـ المسند: الإمام أحمد بن حنبل. مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.

* * *

□ الفهرست □

الموضـــوع	الصفحة

* * *

يصدر لمكتب الدراسات والتحقيق بدار طيبة
قريباً - إن شاء الله تعالى - الأعمال الآتية

---

١ – **الإمام أحمد بن حنبل.** ضمن سلسلة بعنوان: (المجددون) تتناول فيها تراجم بعض المجددين وبيان أعمالهم التجديدية.

٢ – **أبو بكر رجل الدولة:** دراسة موضوعية توضح كيف انتقل الخليفة الأول بالحكم الإسلامي من دولة النبوة إلى دولة الخلافة.

٣ -- **غزوة فريدة ودرس رشيدة؟!**

٤ -- **رياض المصلحين** كتاب يجمع نصوص الكتاب والسنة فيما يتعلق بالإصلاح والتغيير مرتبة على أبواب وفصول.

ردمك ٩ – ٠ – [illegible] – ١٠ – ٩٩٦٠